

مذاهب وشخصيات



كامل كيلاني

الرائد العزيمى لأدب الأطفال



تأليف
عبد الفتى البدوى





کامل کبیرانی الرائد العتري للأدب الأطفال

تأليف: عبد الفتى البدرى

أَقْعِ النَّاسَ وَحَسْبِي

أَنْتَى أَجِيَا لِأَقْعِ

أَقْعِ النَّاسَ وَمَالِي

غَيْرَ قَعِ النَّاسِ مَطْمَعِ

لَامِلِ كِبَرِي

تقديم

بقلم : رشاد كامل كيدر

ليس من السهل أن نحدد متى بدأ أدب الأطفال يأخذ مكانه بين ألوان الأدب المختلفة ، فالأنواع الأدبية كما هو الشأن في كل شيء يحيا - لا تولد كاملة - ولا تنشأ تامة ، وإنما تتدرج في نشوئها وتطورها ، حتى تعلن وجودها ، وتأخذ مكانها اللائق بها . ومؤرخو أدب الأطفال لا يستطيعون إلا أن يضيفوا إليه ما وضع (عثمان جلال) من أزجال قصصية في كتابه (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ) . وهي من الأدب المترجم ، ولا يستطيعون كذلك إلا أن يذكروا أراجيز شوقي ، تلك التي تتضمن حكايات وأساطير ، أبطالها من عالم الحيوان .

كذلك مازال منا من يحفظ أو من سمع الأناشيد والأهازيج التي كان يترنم بها في مكاتب التعليم ومدارسه ، آباؤنا في طفولتهم : مثل انشودة العصفور الحبيس ، التي يقول فيها :

وليس فيه أربسى
وان يكن من ذهب

الحبس ليس منهبي
ولست أرضى قفصا

ومثل أنشودة استقبال الطائر التي يقال فيها :

أيها الطائر أهلا بمحيياك وسهلا
فقت كل الطير شكلا زانه ذاك الهديل

وهناك أيضا تلك الحكايات القصار التي تردت زمنا طويلا على
السنة الأطفال من أهل الجيل الماضي أو الذي قبله .

وهل ننسى منها المثل الذي كان يبدأ بقوله :

يحكى أن غزالا عطش مرة ٠٠٠٠

كل ذلك كان من بعض اللوامع التي مهدت لظهور رائدين في أدب
الطفل ، أحدهما في النظم ، والآخر في النثر ، وإن كانت له في الشعر
مشاركة .

كلاهما كان في الصف الأول من الأدباء ، ولكنهما في وعى مبكر -
آثر كل منهما لنفسه أن يرتاد هذا الميدان الجديد في محاولات جادة ، وفق
خطط محكمة .

واليهما يرجع الفضل الأول في دعم أدب الأطفال وفي توسيع
آفاقه .

والشاعر الذي نذر الجانب الكبير من فنه لأدب الأطفال هو محمد
الهراوى ، الذي اقتن في منظوماته شكلا وموضوعا .

فقد كان يختار من الأوزان الشعرية أيسرها حفظا وأخفها على السمع ،
وكان لتمكنه وأصالته يصطفى من مأنوس الالفاظ ما يمتع الذوق ، أما
الموضوعات فقد كانت مستمدة من صميم حياة الطفل وملابساته منطوية
على توجيهات حكيمة وفي المعاصرين لنا من لم ينسوا قوله :

أنا في الصبح تلميد وبعد الظهر نجار
فلى قلم ومسطرة وأزميل ومنشار

أما رائد التأليف للأطفال في ميدان النثر ، فهو : « كامل كيلانى » .

ولقد كان اقتحامه هذا الميدان مغامرة ، فانه كان يشق طريقا جديدا
وكان يمشى على أرض صلبة ، وله عند كل خطوة عقبة .

ولعل حماسته لروائع الأدب العربى هى التى أوجت اليه أن يقتحم
ذلك الميدان ، فانه لما قدم الى قراء العربية أدب « المصرى » و « ابن الرومى »

« وابن زيدون » نصوصا ودراسات - هاله ألا يجد هذا الأدب مساعا إلا عند الخاصة من المتأدين . فهتت نفسه إلى أن يستمتع بالأدب العربي . أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة ، وهذه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق . إلا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل العذاب .

فمضى يكتب للأطفال مؤلفا ومترجما ومقتبسا ومقوما ومفصحا ، وأعنى بالتفصيح : نقل القصص والحكايات والأساطير من مروياتها أو من كتابتها الركيكة المسفة إلى بيان فصيح بلسان عربي مبين .

ولقد كان كامل كيلاني في ارتياده لأدب الأطفال عالمي النزعة انساني .

الروح .

فلم يقف عند الشرق يحى بدائع « ألف ليلة وليلة » . « وطرائف جحا » . « وأساطير الهند » .

ولم يقتصر على الفكر العربي يدنى منه فلسفة ابن طفيل في « حي . ابن يقظان » وأدب « ابن جبير » في رحلته إلى مصر والحجاز ، وإنما تعدى ذلك إلى أساطير العالم وإلى أشهر قصصه فقدم « روبنسن كروزو » و « جيلفر » ، ونخبة من روايات « شكسبير » . وكان كذلك عميق النظر ، بعيد الأفق ، يجعل التسلية في العرض القصصى سبيلا إلى الاستفادة والتأثير .

فجاذبية القصة عنده وسيلة لا غاية .

ولذلك انطوى أدبه للأطفال على تربية قومية ، وتقويم خلقي وتوجيه اجتماعي ، إلى جانب توسيع المدارك بالمعارف والعلوم .

وهكذا قصد كامل كيلاني لمختلف هذه النواحي من الكتابة للأطفال ، يلزم نفسه القيام بأعبائها جميعا :

كان يضع النماذج في مخطط واف لما يجب أن يكون ، حتى ترك - كما قال الأستاذ أنيس منصور في مقال له بعنوان : « ألف كتاب اسمها كامل كيلاني » .

والرود في كل ناحية من نواحي الإصلاح إنما يحسون بواعيتهم . ويرون ببصيرتهم أن الوقت قد حان لعمل جديد .

فهم يعطون إشارة البدء ، وحسبهم ذلك من فضل ، وهذا ما كان في شأن أدب الأطفال .

فقد زال من الأفكار وهم الترفع عنه ، والتقى بذلك وعسى المربين ، ورجال التعليم ورغبتهم فى أن يكون حظ الناشئين العرب من متعة القراءة والاطلاع حظ النشرء فى الأمم المتحضرة ، فأقبلوا يكتبون للأطفال ، واستنار الطريق ، وتعد المؤلفون أو المشرفون على التأليف .

ومازلنا نظفر يوما بعد يوم بالكرام الكاتبين ، حتى ليسعنا القول فى غير مفالة . ان لدينا مكتبة للأطفال صالحة للتجديد والنماء والازدهار .

ونحن فى هذا العهد الثورى الذى نحرث فيه أرضنا من جديد أحوج ما نكون الى أن نوجه عنايتنا الى أدب الأطفال ، ونجعل منها مادة تتحدد فيها المبادئ والأغراض والاهداف التى يتكون منها مجتمعنا الحاضر ، فيجب أن تكون قصص الأطفال تصورا للبيئة ، وتمثيلا للروح ، وتهيئة للحياة التى تقوم على دعائم من الصناعة والعلم .

وكذلك ينبغى أن تتطور الشخصيات الموروثة من الأساطير . فلا تكون شخصيات رعية وأفراد ، وانما تصور على أنها شخصيات شعبية تستجيب لحقائق الحياة وأوضاعها الرشيدة ، حتى يستطيع الطفل أن يجد فى هذه الشخصيات اسوة له يقتدى بها فى مستقبله المرجو ، فيقوم بدوره البطولى فى واقع الحياة التى يحيها ، وفيما يحيط به من ملاسات .

وعلىنا كذلك فى مرحلة التخطيط لأدب الطفل أن تقدم الأساطير العالمية لكل الشعوب لناشئتنا ، وأن يطالعوا القصص الهندية ، والقصص الصينية ، والقصص الروسية ، والقصص الافريقية .

ولكن لا نترجم تلك الأساطير ترجمة تسيء الى أغراضنا التربوية والقومية . بل نترجمها عن أصلها وتهذيبها ونخليها مما يصور استعلاء بعض الشعوب على بعض ، ونعمل مواقفها تعليلا يتمشى مع مبادئ الخير والحق والعدل والسلام ، وادراكا لتقاليد الشعوب وعاداتها ، ادراكا يمكن من بث روح التعاون الانسانى السلمى .

وفى طبيعة ما ينبغى الالتفات اليه أن نحدد ألوان الثقافات والمعارف التى يجب تبسيطها للطفل ، حتى نكفل له تنمية كفاياته وإيقاظ مواهبه ، وحتى نوافيه بأهميات المعلومات التى تكون شخصيته السوية الواعية المستبصرة ، اذ تكتسب من كل علم وفن وثقافة مايقوى خبرتها بالحياة ، ويعينها على أن تزاوّل تجربتها فى عزم وتفاؤل وتثبت بالنجاح الى أقصى غايات النجاح .

وأهم من كل ذلك فى تخطيطنا الفنى لأدب الأطفال أن تكون أحداث القصص ، مقدماتها ونتائجها ، وكذلك شخصياتها - الواقعي منها والأسطوري - قائمة على الصدق ، فكلما كانت الأحداث صادقة على المجتمع ، وكلما كانت الشخصيات صادقة على الناس من حولنا - كان التأثير ايجابياً ، وكان العمل الأدبى ناجحاً .

وإذا كان الخيال عماد القصة وجوهرها فإن الصدق يجب أن يكون رائد هذا الخيال الخلاق . أما الكذب على الحياة والأحياء فإنه يصطدم بواقع الحياة فى قوانينها الثابتة وتجاربها التطبيقية . وحينئذ يذهب أثر القصة فى النفس ، ولا يكون لها فى السلوك الانسانى صدى .

وليس أسوأ من المغالاة فى تصوير البطولة . والمثل العليا دون ملاحظة الصراع النفسى بين الشر والخير ، ودون مراعاة ما تقتضيه الحياة من عوامل الاغراء ، فإن هذه المغالاة تجعل من البطولة شيئاً بعيداً مناله ، وترينا المثل وهما مسطورا لا وجود له فى الحقيقة .

فلابد فى أدب الطفل أن يرى الناشئة أحداثاً تسير طابع الحياة ، ولابد أن يطالعوا شخصيات يمكن أن تعيش بين الناس .

ومادمننا قد سمينا ما نسلى به طفولتنا « أدبا » فيجب أن نتفق على ان لغة الأدب هى : **اللغة العربية الفصحى** .

وإذن فمن حق أدب الأطفال علينا أن يكون بلسان عربى مبين ، وفى فصاحة العربية مجال عريض للكلمات المأنوسة ، والجلد المألوفة مما يجعل التعبير أقرب الى لغة الخطاب .

وليس من المنطق أن نسلى أطفالنا فى تشابههم بكتب ومجلات عامية اللهجة . ونحن نعلمهم ليعبروا عن خواطرم وأفكارهم تعبيراً عربياً فصيحاً . ونعلمهم كذلك ليقروا فى مراحل تعليمهم منذ المرحلة الاعدادية ادبا عربياً فيه مختارات لشعرائنا وكتابتنا البلقاء .

تلك هى التنشئة التى لا تتفق مع مستقبل أطفالنا ، فليكن قصارى ما نقدمه فى أدب الأطفال من الناحية اللغوية التقريب بين المسموع والمقروء . والتدرج بالكلمات والأساليب الى اعداد النثر اعدادا يتيسر به أن يستمتع بأدبنا العربى ، وما فيه من روائع الفكر .

فأما أن ننشئه قارئاً للعامية ، ثم نطالبه بعد بقراءة البلاغة العربية ، فذلك هو طلب المحال .

• وإذا كان لي اقتراح في النهوض بأدب الاطفال فهو : أن تنشئ الدولة مؤسسة لهذا الغرض . تشرف على هذه الناحية من حياتنا التربوية والثقافية . وأن يرصد لهذه المؤسسة مال لتنمية انتاج أدب الاطفال ، ودعمه ، وتشجيعه .

• وهنا ينفصح المجال للكثير من الخطط والمشروعات .

ولعل ما يتخذ في هذا الصدد أن يكون هنالك مشروع : « ألف كتاب للأطفال » على غرار مجموعة « الألف كتاب » فتتألف لجنة تختار كل سنة عددا من الكتب . وتكل ترجمتها أو تأليفها الى من ترى كفايتهم للترجمة أو التأليف .

• ولا شك أن دور النشر المختلفة سترحب بالتعاون مع المؤسسة على تحقيق أغراضها ، وستبذل كل دار في هذا الصدد ما لها من خبرة وتجربة .

• ومستطيع المؤسسة بما لها من امكانيات أن تعمل على انشاء مكتبة القرية ، ومكتبة القطار . ومكتبة الحديقة ، والمكتبة المتنقلة . من أجل تنشئة الجيل المساعد ، من أجل الاطفال .

• واني ليسعدني أن يعنى الأستاذ « عبد الفنى بدوى » بدراسة رائد ادب الاطفال الأول في الأدب العربى ، والذى المرحوم الأستاذ « كامل كيلانى » .

• وقد عرف الأستاذ « البدوى » والذى فى آخريات أيامه وكان على مقربة منه ومن جهوده التى تواصلت الى آخر يوم من أيامه .

رشاد كامل كيلانى

الفصل الأول

نشأته وحياته

(ولد n كامل كيلاني : في العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٩٧ •
والده الشيخ « كيلاني ابراهيم كيلاني » الذي يتصل نسبه بالشيخ
« عبد القادر الكيلاني » (الجيلاني) •
وكانت السيدة والدته تقول الزجل •

ولقد عرف الأديب نفسه ، وحدث عن نشأته فقال :

« اسمي (١) (كامل كيلاني ابراهيم كيلاني) ، وأبى كان من
أشهر ثلاثة مهندسين في عصره ، هم : عز (بك) ، وسيد متولى (بك) ،
والشيخ كيلاني (بك) •

وكنّا نسكن في القلعة في حوض الجبل ، وكانت لي مربية يونانية
مثقفة جداً ، كانت تحكي لي أقاصيص عجيبة ، ملأت على كل خيالي •
أستاذي هو الشيخ (أحمد أبو بكر) ، وهو شاعر بربابة ، يسترزق
من حكايات (أبو زيد الهلالي) •

وقد حفظت قصائد الشاعر الصوفي (عبد القني النابلسي) ،
والشيخ (محمود الملاح) و (الاسطى) و (محمد الشيخ) و
(العربي) •

وإبان نشأتي ذهبت إلى (الكتاب) مع ابن أختي • وبقيت فيه أربع
ساعات فقط • وكانت مني أيامها حوالي ست سنوات •

كنّا جالسين ، منا من يقرأ ، أو يحفظ ، أو يسمع لزملائه •

ونحن في انتظار قدوم الشيخ •

وكنّ أنا جالسا وحدي أتفرج بالعيال •

يوكان في (الكتاب) عريف ، كان يريد تعليق (يافطة) جديدة
أعدها إليه أحد التلاميذ ، وأمسك العريف بمسما يدقه في الخائط ،
ومال برأسه ، فوقع نظره على دواة الحبز الكبيرة التي يملكها « سيدنا

(١) من مقال نشر في مجلة الإذاعة عام ١٩٥٥ ويضم مقالات أخرى

الشيخ ، فامسك بها في يده ليلق المسمار ، فانكسرت الدواة ، وأغرق
الحجر ملايسه .

فقال العيال كلهم : (هيه) ! وقتلها معهم .

ودخل الشيخ « عبد الباقي » على الضجيج ، وفقد الأولاد النفس ،
وبدا العريف في مد الأولاد واحدا واحدا !

وجاء على الدور !

وأصابني الرعب من شدة ضرب العريف للأولاد !

وتوقفت يد العريف عن الضرب ، واهتز سقف (الكتاب) . ومال
الحائط الذي نستند اليه ، وتكهرت أرجلنا الصغيرة . ونحن نحاول أن
نجري ، فلا نستطيع !

واعترضت طريقنا عربة (كارو) كبيرة فاندفعت في وجه الحصان.
كتلة كبيرة من الحجر . فسقط الحصان غارقا في دمه وامتلات الدنيسا
بالقبار الأحمر ، وأمطرت السماء حجارة ودخانا ، وأصيب أكثرنا ، فسقط
يطلب الأمان بعيدا عن الموت والحيطان . وسقطت مئذنة المسجد الذي
يجاورنا ، وانكفأ النساء والشيوخ والأطفال على وجوههم ، يصلون ويدعون
الله أن يحسن الختام .

وصفا الجو بعد أن توقف يوم القيامة عن الاستمرار ، بعدها عرفنا
السبب .

رعى أحدهم (عقب) سيجارة في مخزن البارود (بالمفاورى) ،
فكسر الجبل ، وانحدر بأحجاره وغباره على حيننا الملاصق للجبل .

وما زالت أكثر مساجد القاهرة محطمة المآذن من أيامها .

وكانت هذه الحادثة عام ١٩٠٤ ، ونجوت من (علة) العريف .

وبعدما بسنتين أو ثلاث ذهبت الى (الكتاب) ثانية ، وكانت أمي
تهددني دائما بأن أبى سيضربنى . ولكن أبى لم يضربنى قط وعشت كل
طفولتى وصباى أنتظر (علة) أبى بعد كل غلطة .

وما ان نفساً « كامل كيلانى » وترعرع ، حتى اخذ يحفظ القرآن
الكريم فى (المكتب) ، ثم اتجه الى المدرسة ، فدخل مدرسة أم عباس
الابتدائية عام ١٩٠٧ م .

ثم انتقل الى مدرسة القاهرة الثانوية ، وغال شهادة (البكالوريا) .
وقد عكف على دراسة الأدب الانجليزي ، وحفظ الشعر ، اذ كان مشغولاً
بالأدب ابان نشأته وصباه .

ثم تعلم الفرنسية ، وانتسب الى الجامعة المصرية القديمة من عام
١٩١٧ م - ١٩٣٠ م . وكان متفوقاً في دراسته ، و (زميلاً) لطائفة من
رجال الأدب ، من بينهم . . المرحومان الدكتوران : زكي مبارك ، و
عبد الوهاب عزام . والدكاترة : عبد الحميد العبادي ، وحسن ابراهيم
حسن ، وفريد رفاعي .

وبعد ان تخرج اشتغل مدرساً في المدرسة التحضيرية اذ كان
معلماً للانجليزية والترجمة ، وكان مجيداً للفرنسية ، والانجليزية ،
وعارفا بمبادئ اللغة الإيطالية .

وفي سنة ١٩٢٠ م تقل مدرساً في مدرسة الاقباط الثانوية بلمنهور
وفي سنة ١٩٢٢ م وظف في وزارة الاوقاف ، وظل فيها حتى يناير
سنة ١٩٥٤ م . وكان آخر مناصبه بالوزارة ، منصب سكرتير مجلس
الأوقاف الأعلى .

وقد عمل (كامل كيلاني) بالصحافة والفن خلال تلك المدة .
فاشتغل رئيساً لنادى التمثيل الحديث سنة ١٩١٨ م ، ورئيساً لتحرير
جريدة الرجاء عام ١٩٢٢ م ، ثم سكرتيراً لرابطة الادب العربي من
١٩٢٩ م - ١٩٣٢ م .

« وكامل كيلاني » بطبيعته رجل معتزل : يحب الوحدة ، ويكلف
بها ، ويصرفها في البحث والدراسة ، وكان دعواً لا يهدأ ولا يتوقف .
فقد أصبح عمله هذا ، هواية وغاية .

أصبح روح حياته وألمه .

انه لا يضيع دقيقة واحدة من عمره سدى .

قال عن نفسه : (ماضع من عمرى شيء قط) كنت أعمل حتي في يوم
المرض : أفكر ، وأتأمل ، وأرسم خطط العمل . كنت أذهب الى جبل المقطم
ومعى كتاب - وأنا في ذلك أومن بالقاعدة التي تقول :

« العلم اذا أعطيته كلك أعطاك نفسه ، واذا أعطيته بنفسك لم يعطك
شيئاً » .

وظل كيلاني يواصل عمله ، حتى بلغ به الجهد يوماً ما ، فتوقف

بصره فجأة مدة أربع سنوات ، ثم رده الله اليه ، وشغفه بالعمل الذي كان رائده الاول ، والهدف الاسمي .

وكان من رايه ان المعركة بين اديبين من شأنها ان تجعل الادب يفقد اثنين من رجاله ، ولذلك كان يؤثر الصمت حين يهاجمه أحد النقاد ، وبهذا الصنيع يخسر الادب رجلا واحدا .

فكان شعاره ، هو : ان يعمل ، ويعمل دائما .

ويتابع الاستاذ الكيلاني سلسلة الحديث عن نفسه ، بالنسبة لتعلقه بالاساطير وشغفه بها ، فيقول : « ان الاسطورة دعامة حياتي » .

ويرجع هذا الى انه ولد في احضان جبل المقطم . وكان الابن الرابع عشر لأمه ، ولم يظفر بالحياة غيره ، فنشأ في جو صحراوي سحري ، يعبق بالاساطير والاغاني ، قائل منذ طفولته - العزلة الباكرا - وفلسفته في هذا انه لا يرتبط مع العالم الا في الضرورة القصوى . وقد كان هذا مما اتاح له أن يقرأ ويسوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من عيون الشعر العربي .

هذا بخلاف الروائع الأدبية والحكم والامثال وحصيلة غير محدودة من الفكاهات والاقاصيص .

وكامل كيلاني كان طبعه المحايدة . فلم يتعصب لأديب بعينه . ولم يكن يفضل أدبا على ادب ، ولا كاتباً على كاتب آخر ، ولا قصيدة على قصيدة أخرى . اذ ان : (آية الجمال انك تعيش مع كل عظيم ، فتراه اشبه بالحسناء التي تنسيك الحسان) .

عاش « كامل كيلاني » اثنين وستين عاما واشهرا ، حافلة بالعلم والمعرفة .

وكانت وفاته مساء يوم الجمعة ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م . وشيعت جنازته الى المقر الأخير صبيحة يوم السبت ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

أساتذته :

لو بحثنا شخصية كامل كيلاني نفسانيا نجده رجلا ملهما ، يستمد الهاماته من عالم اللاشعور . ولعل هذا هو سر قوته . ويعتبر هذا :

الالهام هو العنصر الجوهرى الذى تتكون منه شخصيته القوية الساحرة
التي تكمن وراء جسمه الضئيل الضعيف .

ولنستمع اليه حينما يشرح العوامل النفسية الفعالة ، ويبين
العناصر التي جعلت منه اديبا فتراه يقول عن نفسه :

(كان لى خال ، اسمه (سعد اسماعيل) ، وكان رجلا مكثوف
البصر وقد كلفه والدى - حيث لا عمل له - تربيته ، وكان خالى هذا
بحرا فياضا زاخرا بالقصص ، فكان يقص على مسمى ماعنده من
قصص في اثناء الليل ، مما جعلنى احب القصص ومطالعتها ، وحفظ
الأشعار .

وكان لى حوذى (عربى) ، نصف امى ، ونصف فيلسوف .
وكان حافظا للقرآن الكريم ، وكثير من الأحاديث النبوية ، كما كان
حافظا لكثير من الحكايات المتعلقة بالسحر والخرافات .

وكان والدى ينصرف الى عمله ، ويترك الحوذى يقص على ، أو
يقال لى ، وقد سحنت منه قصة « سيف بن ذى يزن » فأنثرت في نفسي
كثيرا !

ومن المصادفات العجيبة ان والدى كان صديقا لاحد الأثرياء
المعروفين . وفي يوم ما ، رآه والدى حزينا ، فسأله عن سبب حزنه ،
فأخبره بأنه كان يعول امرأة يونانية أرملة ، ولها بنتان ، وأنه سيسافر
الى « سويسرا » ولا يأتى ماذا يصنع بهذه الأسرة المسكينة ؟ .

فأبدى والدى استعداداه لرعاية هذه الأسرة ، وتولت المرأة تربيته
وكانت بنتاها على ثقافة واسعة . وأول ما سمعته منها : هو « أساطير
اليونان » .

وكان هنالك شاعر شعبي من شعراء (الربابة) اسمه (عبده
النصار) وكان ينشد على ربابته اقاصيص البطولة ، فكتبت اذهب
لاستمع اليه كل ليلة في ميدان القلعة في سوق العصر .

فسمعتى لقصص العرب ، وأساطير اليونان ، وحوادث الإبطال من
شاعر الربابة ، وامتلاء أذنى منذ الصغر بكل هذا - كان له تأثير في اتجاهى
الى القصة . وقد أعجبتنى قصة « سيف بن ذى يزن » كثيرا ، وكنت
أعقد مقابلات بينها وبين (الإلياذة) و (الأوديسية) لهوميروس ، وعز
على أن تنهب شخصية « دمر بن مسيف بن ذى يزن » هباء بلا تخليد ،

قصصت قصة « تمر » وجعلت له ابناً سميت « صفوان » . وجعلت هذه القصة في ثلاثين جزءاً ، نشرت منها - فيما بعد - ثلاثة فقط ، وكان عنوان القصة الذي خطه صديقي الأديب الشاعر الخطاط الأستاذ « سيد إبراهيم » هو (الأمير صفوان وقصته بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال) .

والذي حدث ازاء أول تجربة لي في عالم التأليف ، حينما كنت تلميذاً بالابتدائي بمدرسة أم عباس سنة ١٩٠٨ م - أنني ذهبت مع صديقي (سيد إبراهيم) الى أحد (الكتبية) . فلما رأني الناشر استخف بي واحترقني ، وعلمني هذا إلا أكثر من اللقاء بالناس ، ولذلك كنت أنشر كثيراً بتوقيع رمزي ، وهو (ك . ك) .

وليس معنى هذا أن القصص كانت كل شيء في حياتي ، فقد كنت مولماً بالدراسة العلمية في نواحيها المختلفة ، فكنت أطالع بالعربية والانجليزية والفرنسية .

وكان لوالدي مكتبة حاشدة بالكتب العلمية والرياضية ، لأنه كان رياضياً بارعاً .

فكففت عليها ، واغدت منها كثيراً . ولقد كنت أحفظ وأنا تلميذ عشرين ألف بيت من الشعر :

وكنت انتهاز فرصة العطلة الصيفية لأحضر في (الأزهر الشريف) مستمعاً ومحصلاً .

ومن أساتذتي فيه « الشيخ السحري » والشيخ « سيد المرصفي » .

كما كنت حريصاً على ندوات الأدب والشعر والعلم . وأذكر من بينها ندوة الشيخ (مصطفى الحلبي الشامي) الحلواني التي كنت أحضرها مع (زميلي) الأستاذ (سيد إبراهيم) . وفي هذه الندوة عرفت (المعلقات) .

أما في أثناء دراستنا بالجامعة القديمة فقد وضعنا لأنفسنا خطة لدراسة الأدب العربي ، والأدب الإنجليزي ، والفرنسي ، ودراسة الفلسفة والتاريخ الإسلامي .

وفي الوقت نفسه التحقت بمدرسة (دانتي الليجييري) لدراسة الأدب الإيطالي .

وكننت اهر ب مع « زكى مبارك » الى مدرسة الأزهر الفرنسية وهو الاسم الذى اطلقناه على القسم الللى الذى انشأته البمئة الفرنسية بحى الأزهر .

قرأ « كامل كيلانى » ، (عنترة) و (سيف بن ذى يزن) و (فروزشاه) و (حمزة البهلوان) و (الظاهر بىبرس) .

وهى فى مجموعها تبلغ حوالى مائة وسبعين كتابا ، ولكن هذا الرصيد الضخم لم يكف القارئ الطلعة ، الذى اندفع يقرأ الاساطير فى الادب الاوربى : (روبنس كروزو) (وجيلفر) وغيرها من اساطير الهند واليونان .

فانشأ بهذه القراءات - فى أعماقه - منطقة خيالية عجيبة ، ظل يعيش فيها حتى انفجر حاجزها ، عندما بلغ غاية قوته ، على هذه الصورة الرائعة .

وقد أمده التاريخ بالمادة الخام ، فقد قرا الى هذه القصص - أهمها كتب التاريخ .

وبجانب ذلك فى أثناء دراسته - قرا كتب الادب العربى القديمة ، مثل : (الامالى) و (الكامل) للمبرد و (العقد الفريد) .

مواهبه الادبية

ولد الكاتب الامى (كامل كيلانى) اديبا ويمد الحاج مصطفى الحلبي (بائع البسبوسة) - الذى كان يقف أمام الحارة ، التى كان يقطنها كامل كيلانى - أول من أوحى اليه ، وكون ملكته الادبية .

وكان هذا البائع اديبا يحفظ عن ظهر قلب قصائد العالم الصوفى (عبد الفنى النابلسى) والشيخ (محمود الملاح) والشاعر الذى كان يفتى على (الربابة) فى القهوة المواجهة لحارته ، و (الاسطى) محمد الشيخ (العربى) . وكانت بداية (كامل كيلانى) لحياته الادبية بأسلوبه الخاص ونظرة للحياة مما يوحى اليها بأنه سيأخذ مكانه الطبيعى بين صفوف الادباء والمؤرخين . بل ان اتجاهه التاريخى كان غالبا فى البداية ، على اتجاهه الأدبى ، تشهد بذلك مؤلفاته : (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الاميان) .

ثم ابرز اتجاهه الى الشعر . فهو شاعر يخفى آثاره الشعرية ، ويحتفظ بها لنفسه .

ثم بدأ يراجع (ابن زيدون) و (ابن الرومي) .

ثم اتصل بالأدب الأندلسي ، وترجم كتاب (نظرات في التاريخ الاسلامي) لدوزي ، واتجه بعد ذلك بشغف الى (المعري) . وعاشر طويلا معه ، وأخرج « رسالة الغفران » .

شغف الكيلاني بشخصيتين في الادب العربي ، وكلف بهما كلفا عجيبا هما « المعري » و « جحا » .

وهو يقول في ذلك ، انهما يجعلان في نفسه أهواءه وآراءه ، وأصداء نفسه . فهو جماع بين (المعري) : العابس المتحجم و (جحا) الباسم الساخر .

وهو ايضا قد ضاق بما أدلى به الادب الانجليزي من التقدير لشخصية (نصر الدين خوجة) : (جمال التركي) . في حين ان (جحا العربي) (أبا الفصن دجين بن ثلث) أقدم منه تاريخا . وأغلب مانسب الي (نصر الدين) انما هو في الحق من آثار (أبي الفصن) .

وجحا (أبو الفصن) يمثل الشخصية المصرية المرححة الفكحة ، وتقوم فلسفة فكاهته على قاعدة : (عامل الناس بما اختاروا أن يعاملوك به) .

اما (أبو اللؤلؤ) فيختلف ، ويميزته عند (الكيلاني) أنه يعبر عن كل أفكاره ، فهو يرى نفسه شبيها به .

ومجمل القول ان (كامل كيلاني) كان مغرما بالادب منذ حياته الأولى . ويكفي في مثل هذه الحال أن يقرأ كتابا غير الكتب المقررة عليه ، ويحاول أن يفهم مقالا في صحيفة ، فانه بعد ذلك يحس في نفسه الرغبة في قراءة ما هو غير مدرسي . وخطوة بعد خطوة يرى نفسه خيرا مما كان عليه ، وربما رأى نفسه مجدا عن كثير من لداته .

وعندما يصل الى مرتبة الاحساس بالتفوق يكون قادرا على أن يحرق أصابعه ، وربما أحرق ثيابه ، في سبيل أن يتعلم كيف يكتب ، مثل ما يكتب هؤلاء الذين قرأ لهم هاتيك النفائس !

وأهم حادث اثر في مجرى حياته انما هو أن طائفة من أصدقاءه ماتوا سنة ١٩١٤ م بالهيفة ، فقدهم فجأة ، وكان بعضهم أقوى منه صحة ، فأحس بأن القدر قد تخطاه وأن مابقى من عمره . كأنما هو زيادة .

ومثل ذات مرة : لو بقى من عمرك يوم فماذا تفعل ؟ فأجاب
الكيلانى قائلا : اكمل آخر ملزمة من كتابى .

واصيب مرة بأزمة قلبية ، فلم يحزنه خلالها الا انه لم يقرأ كتاب
«برودكستر» وهو من أبعد الكتب - التى قراها - أثرا فى حياته ،
وقد توفى على قراءته بعد أن أبل من أزمته حتى لا ينلم عليه ، لو ألمت
به أزمة أخرى .

هذا الشاعر ، هذا الرجل الذى عاش فى الأساطير ، والقصص
والروى ، بين (الف ليلة) وبين (سيف بن ذى يزن) الذى يحبه كثيرا :
هل له قلب ؟

هل أحب ؟

وكيف كان اثر الحب فى ادبه وحياته ؟

الحقيقة أن قصة قلب (الكيلانى) لم تكتب على الصورة التى
يحفظ بها فى أعماقه !

انه كان لا يريد أن يطلع احدا على هذا السر فى هذه السن ، ولكن
قصة (سنية) « فى مجموعته القصصية - مختار القصص » تغطى صورة
قريبة (لغتر) الذى أوشك أن ينتج فعلا ، لولا خاطر شعورى كان سببا
فى انقاده وهو : انه لم يودع فراشه الذى أمضى حياته فى أحضانه ، وهو
ودود ، ألوف بالطبع !

هذا الحب دفعه الى أن يحفظ ديوان (العباس بن الاحنف)
ويسترجعه . وتترأى له - فى خلال شطراته - أحلامه وآلامه ،
ومشاعره .

لقد أحب العباس بن الاحنف جبا صادقا نقيًا . وكذلك أحب
الكيلانى .

وذكر الكيلانى انه منذ طفولته الى شبابه وشيخوخته لم يشغله
شغل عن الفن والادب والاطلاع والتفكير .

ثم قال : علينا أن نذكر أن النهار طويل ، والليل أطول . ومثل
لا يضيع جزءا من وقته فى غير طائل .

ومتعنى هى القراءة ، والقراءة الموصولة التى تؤدى بطبيعة الحال
الى الكتابة الموصولة ، وروافد الثقافة متعددة ، وينابيع المعرفة كثيرة .

فانا اوافق - منذ عهد بعيد - أمثال «شكسبير» و «موليير» و «المري» و «دانتى» و «هوجو» و «موسه» و «كولريديج» و «بايرون» و «شيلي» و «ديكنز» و «ماكولى» وغيرهم .

ومن هذه المرافقة أفدت ، وثارت في ذهنى وخاطرى المواد المختلفة التى تشر إليها .

اتجاهه القصصى :

. الواقع أن الاتجاه القصصى عند (كامل الكيلانى) كان نتيجة طبيعية لطابع شخصيته ومعالم نفسه ، ولو أنه لم يكتب القصة لعق فطرته ، ولظل فى عداد « الأدباء » ولم يقفز الى صفوف « البواد » . الحقيقة أن كل أثر من آثار « كامل كيلانى » - فى مستهل حياته الادبية - يعطينا خطا من خيوط شخصيته القصصية . كما جاءت - بعد ذلك - قوية خلاقة - عندما أبدع هذا اللون الجديد فى الأدب العربى ، وهو « قصص الأطفال » .

فان التاريخ ، والشعر ، والأدب - كلها نوافذ على الفن القصصى ، واعداد له . وهو « النواة » التى تخلق الرواية .

واذا عدنا الى الوراء ، لحياة « كامل كيلانى » وجدناها قد رسمت وفق أسلوب قصصى ، فقد تفتحت روحه على الاسطورة العربية ، فاندفع يقرأ كل أسطورة ، فى كل أدب .

واذا اردنا أن نبحث عن الحافز الذى دفعه الى السير فى هذا الاتجاه الخاص بالطفل ، وجدناه ذا قرعين :

اولهما يتصل بشعور « الكيلانى » وهو طفل حينما كان يرى قصص الاطفال الأجنبية آية من آيات الروعة والجمال ، والقصص العربية فى القاية من النسخ والتشويه ، حتى لقد قال لزميله وصديقه الأستاذ « سيد ابراهيم » حينما كانا طفلين : « ان هذه الكتب العربية تبغضنا فى القراءة » .

فقال له : « ألف خيرا منها ، ان كنت فاعلا » .

فظل هذا الشعور يلزمه منذ طفولته المبكرة ، وهو يقرأ ويكثر من القراءة فيخزن كل موقف رائع ، وكل قصة طريفة يعجبانه ، لانهما يعجبان الاطفال الذين هم فى سنه حتى جاء اليوم الوعود ، فظهرت أول

قصة من قصص الأطفال سنة ١٩٢٧ ، وهي قصة « السندباد البحري » .

اما الفرع الآخر ، فقد يكون الحافز لاتجاهه في هذا السبيل : انه قص على ابنته قصة قرأه - بعد أيام - يقصها على الخادم بحلدا فيرها محافظا على اذق الاجزاء ، وزادت دهشته حينما علم انه قصها مرات على جميع لدااته ، لم يحذف منها شيئا .

فادرك - حين ذاك - ان هذه القصة تشوق جميع الأطفال ، واصبح امام امرين :-

اما ان يقتصر وقته على تربية اولاده وثقيفهم بهذا الضرب من القصص ، واما ان ينشره ويعممه ، ويربى الولاده مع الجمهرة ، وأثر الأخيرة -

وتوالى قصصه للأطفال من ذلك الحين ، حتى بلغت أكثر من مائتي قصة ..

ونحن اذا ما انتقلنا من تبين الحواجز الى استجلاء الاسس التي قامت عليها هذه القصص عنده - وجدناها ثلاثة :-

١- الجانب اللغوي *

٢- الجانب المعنوي الخلقى *

٣- الجانب الموضوعي *

اما الجانب اللغوي فيرى الاستاذ « الكيلاني » ان كتب المطالعة العربية كلها - على تفاوتها - لا تصل التلميذ بقرائه الأدبي ، ويرى انه ينبغي ان تكون كتب المطالعة قنطرة ، او طريقا مبدءا ميسرا - مهما يطل - يصل الطفل منذ الروضة (بالتنبيه) و (أبى العلاء) و (أبى تمام) ، يل بشعراء الملققات !

وطريقته في استخدام اللغة هي التكرار والاعادة مع الشكل الكامل لكل حروف الكلمة ، فهو يكرر الكلمة الجديدة في القصص نحو خمس وعشرين مرة ، حتى يحس الطفل انه فهمها فهما دقيقا جيا في الجملة نفسها ، وحتى تثبت في نفسه ، وتصبح جزءا من ثروته اللغوية ، يستعملها في حديثه وكتابته ..

اما العناية بالشكل الكامل فالقصود منها تجنب الطفل اللفظ الخاطيء ، لان الطفل يحافظه القوية اذا حفظ الكلمة خطأ ، لزمته طول

خيلته ، فيعمر رده الى الصواب من ناحية ، ويلتصق الخطأ بكرامته ، من ناحية أخرى . فلذا رد الى الصواب حز في نفسه ، وقد يغضب ويثور لكرامته ، ويلعن اللغة ويغفر منها ، فالإنسان عدو ما يجهل .

وأما الجانب المعنوي الخلقى : فان حرص (الكيلاني) على تجنب الطفل الخطأ فيه لا يقل عن حرصه على تجنبه الخطأ اللفظي ، لأن الطفل اذا رأى انتصار الشر مرة ضعف إيمانه بالحياة ، وتزلزلت عقيدته بالخير .

ولأما الجانب الموضوعي : فان (الكيلاني) لم يقتصر على مجال دون آخر ، ولا على أدب أمة دون غيرها ، وإنما استقى من كل لون ، واغترف من كل أدب ، مالا يجوز الجهل به ، وهو يسمى هذه القصص (الفيتامينات الفكرية) ، فلا بد أن تغلظ بها عقول الناشئة من ضروب شتى وعقائد متفاوته .

ونحن اذا ما عرضنا قصصه وجدنا فيها القصص الأسطورية ، والقصص التاريخية ، والقصص الجغرافية ، والقصص المالية .

ومن ذلك يتضح لنا أن الأستاذ (كامل كيلاني) لم يقصر همه على تنمية الخيال وحده ، ولا تنمية الثروة اللغوية وحدها ، وإنما قصد الى هذين ، وإلى مقاصد أخرى ، قد يكون منها امداد الطفل بالمعلومات العلمية ، والتاريخية ، والجغرافية ، وتعميده التفكير العلمي المنظم ، ووصله بركب الثقافة والحضارة من حوله في اطار قصصى يشوق ، واسلوب سهل يستهوى ويروق .

وتعهد الكيلاني بالطفولة وتربية الناشئة ، لأن الطفولة ضعف والعالم رفن . وأخلق أن يمر بها رفيقا ، كمر النسيم بالأزهار ، وأخلق بالعلم التصنيف أن يترفق بهم ، ويتملق تلك العواطف .

على ان للطفولة أفئدة حاكية وضاءة ، كصحيفة السماء ، فحذار أن تخطو في تلك الأفئدة - بل الصحائف - إلا بأقلام لينة ، بتصوير الملامح ، فان للطفولة قلوبا حساسة حافظة كأنها « ورق البصير الحساس » .

وفي مذهب التربية الحديثة ، ان يؤخذ الوليد في تعليمه الجدى ، بالشئ الملهى من فكه الحديث ومشوقه ، في مزاج من النقاش ، والتصوير الكلى ، ليتلقى جد العلم المجتهد ببشاشة الجمال والفن الساحر ، ترقاض به نفسه الكليلة .

منهاجه الأدبي

طريقة الكتابة عند الكيلاني :

نراه يحدثنا عن ذلك فيقول : ليس لي وقت خاص أكتب فيه ، ولا مكان خاص ، ولا طريقة خاصة .

على أن خير الاوقات التي تحلو لي فيها الكتابة هي الاوقات التي أشعر فيها بأن صحتي أحسن ، وإن الضعف الجسماني - الذي يكاد يلازمني - قد حل مكانه شيء من النشاط والصحة .

وكثيرا ما يحلو لي أن أكتب ليلا أو سحرا ، على شريطة أن أضطر إلى الكتابة اضطرارا .

وربما حسبت - لكثير ما أكتب - أنني مشغوف بالكتابة ، والحقيقة أنني من أزهدهم الناس في الكتابة ، وإن كان شغفي بالقراءة قد أدبى على كل حد .

أما الكتابة ، فأنى أهرب منها هروبا ، ولا يضطرنني إليها الا تقييدي بمواعيدها الاجبارية ، وتقديرى التبعية المترتبة على التواني فيها .
ولست أتعيب في كتابة الموضوع ، وإن كنت أتعيب في التفكير فيه قبل كتابته .

وربما لازمتني الفكرة أشهرا إن لم أقل سنين وأنا لا أجد الفرصة لمقيدها كتابة ، ولست أكتب الا في آخر الوقت .

وربما شغلتنى أعمال طوال يومي ، فأعود إلى البيت في التاسعة أو العاشرة أحيانا ، ثم أبدأ في الكتابة حتى أتم الموضوع الذي بدأت فيه ، ولو مضى في ذلك الليل كله .

وليس يعوقني عن الكتابة أن يتكلم بجوارى ألف شخص ، ولكن الصباح أو الصراخ هو الذي يزعجني ، ويقطع على تفكيري ، ويهيج أعصابي إلى أقصى حد .

وليس يعوقني أن أكون جالسا بين أولادي وزوجي في أثناء الكتابة . بل قد يجب إلى ذلك وينشطني تنشيطا .

وربما أنصت إلى حوارهم اللذيذ في بعض الفترات التي أستريح فيها من الكتابة ، وقد أقص عليهم قصة قصيرة ، أو أشلوكم في حوارهم ، ثم أعود إلى الكتابة .

وقد عرفوا اننى لا أغضب الا اذا طلبوا الى أن أتكلم ، أو أبدي رأيي فيما يريدون في أثناء الكتابة .

وهذه عادتي في أثناء القراءة أيضا . وقد ألفوا مني ذلك ، فأصبحوا يتكلمون فيما شاعوا من الموضوعات ، دون أن يوجهوا الى سؤال واحد .

وكان موقف الاستاذ « الكيلاني » . ظاهرا ، حينما لعب الاستعمار دوره ، اذ أراد انتشار العامية للقضاء على اللغة الفصحى ، وفرض لفته على اللغة القومية ليتخذها الناس لغة لهم ، ودستورا في المخاطبات والمراسلات ، وشئون البلاد . ولكن فشل الاستعمار وأذنا به ، اذ ازدهرت اللغة العربية ، وذلك بتقوية الشعور القومي ، بفضل المجاهدين المخلصين .

ونرى الكيلاني يحدثنا عن موقفه الحاسم في ذلك منذ ربيع قرن ايان المعركة اللغوية ، فيقول :

« أنا أحارب اللغة العامية التي يدعون اليها » .

أحاربها بكل ما أستطيع . ولكن أسلوبى في محاربتها ، كما قلت في غير مرة ، هو (حرب البناء الذى يصنع التاريخ) .

وأنا اقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابة بالعامية : أى عامية تكتب بها . عامية مصر ، أو العراق ، أو سورية ، أو الحجاز ، أو عامية القاهرة أو الاسكندرية أو امسيوط أو دمياط ؟

وأنا أقدم لكم نصا كتب باللغة العامية أيام (محمد علي) - وهذا النص عبارة عن خطاب يطلب فيه مرسله استعفاء (البوليس) لفضى معركة بين شابين ، أحدهما اسمه (شادى) والآخر اسمه (بهران) . وهذا هو النص :

(حيص ليص ، ولد « شادى » اتعارك مع ولد بهران ، ليلة البلرحة جبل طلوع الشمس بدنشة ، وعمل موزجلاية كبيرة ، وشده وزعطه ، وشاله ومعطه ، وتناول دنشة حراية كتيرة ، وضربه فى فردة عينه البحرية !)

ولقد وقفت بشدة أمام (محمود تيمون) ، عندما كان يكتب الحوار فى بعض قصصه بالعامية ، قلت له : اذا أردت أن يكون أدبك محليا فاكذب بالعامية ، واذا أردت لادبك الخلود فاكذب بالعربية ! -

وأصبح (تيمور) الآن من الد أعداء العامية -

ويظهر مذهب كيلاني واضحا حيثما رد على الذين يقولون ان كتابة الحوار القصصى باللغة العربية العامية لا يضعف الادب ، ولا يصبغه بصبغة محلية ضيقة ، فقال :

« ان الكتابة وضعت لكي يفهمها الناس ، وكلما استطاع الكاتب ان يفهم عددا أكثر كان نجاحه أكبر . »

والامم العربية مختلفة اللهجات ، ولكن تجمعها ، وتوحد بينها اللغة الفصحى الواحدة ، وهي اللغة العربية - والصيغة المثقفة لا تفهم بفهم الفصحى .

ففى أى سبيل نضيق هذه الامبراطورية الفكرية - وبأى ثمن ؟

لا شك أن حوار القصص يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى ، والذين يعمدون الى جعل الحوار باللغة العامية الدارجة والمألوفة لكل شعب لا يفعلون ذلك الا عن ضعف ، وعدم اتقان للغة - فلو أنهم كانوا متمكنين من لغتهم ما جاء حوارهم عاميا مبتذلا . -

ولقد عني الكيلاني بتبشئة الاطفال ، لانه يعتقد أن طالب الاصلاح يجب ان يعبئ بالطريق . وأول ما يعنى به المهندس انما هو متانة الاساس ، فالطفل هو اساس الامة وموضع أمل الجميع . فالعناية به عناية بالامة جميعها .

ولقد أحس (المربي الكبير) أن الطفل الذى يعيش فى قصصه ، ويرى الخير دائما ينتصر ، ثم يكبر ويلخل معترك الحياة - يجدها كلها صراعا وشر ، فيصاب بصلمة يقف معها مشلولاً أمام الخديعة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه .

ولهذا كان (منشئ الجيل) يضع الشر دائما بجوار الخير ، ويصور له الصراع العنيف ، الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة ، وتنتهى القصة - ولكن الخير ينتصر فى النهاية بكل وسائل الذكاء والمكر والحيلة .

وكانت فلسفته فى ذلك - ليغرس فى نفوس (الاطفال - حقيقة الحياة الواقعية - وهى أن النصر للخيرين الاذكياء ، والهزيمة للاشرار الاغبياء .

الفصل الثاني

رحلته إلى العالم العربي

لقد عبر « كامل كيلاني » عن رحلته في العالم العربي بأسلوب
فياض ، يطرب منه القارئ ، لما فيه من سلامة في اللفظ ورشاقة في المعنى .
فهو يصف البلاد العربية عندما زارها ، وصفا بديعا للأيام التي قضاها في :
فلسطين ، ولبنان ، وسورية - ففي كتابه (مذكرات الاقطار الشقيقة)
الذي ألفه سنة ١٩٣٤م بعد عودته من الاقطار الشقيقة يقول :

(هي أيام بهيجة قضيتها في فلسطين ولبنان وسورية ، تتضائل
بهجة الاعياد والمواسم اذا قيسست الى بهجتها . وقد مرت - على طولها -
قصيرة كما تمر الاحلام الشبيهة ، تاركة - وراءها - أعنب الذكريات ،
وأبدع الاماني .

هي أيام بهيجة ، نعمت فيها بأحاديث أبناء العروبة وشبابها
وشيوخها ، ورأيت في أحلامهم وآمالهم وآلامهم صورا صادقة من أحلامي
وآلامي ، فذكرت قول ابن الرومي :

مواقيت أهواء توافت على هوى

فلو أرسلت كالنيل لم تعد موقعا

إذا ما دعا منا خليل خليله

بأفديك يا لباء مجيبا ، فأسمعا

وليست هذه الذكريات العطرة الا صدى لتلك الايام الساحرة ،
التي قضيتها في تلك البلاد الغائنة ، وسمعت فيها بلقاء زعماء الفكر ،
وقادة الرأي ، في هذه الاقطار المحبوبة .

فالى أبناء هذه البلاد : فتياتها وكهولها وشيوخها ، والى كل نصير
للعروبة والعرب ، والى كل من يعمل على تقوية الاواصر وتوثيق الصلات
بين هذه الاقطار المتاخية الشقيقة - أقدم هذه الذكريات . وليس لي في
تقديمها من فضل ، وانما مثلنا ، كما يقول القائل :

كالبحر يطره السحاب ، وماله

فضل عليه ، لانه من مائه

ثم يواصل حديثه ليصف لنا شعوره في تلك الزيارة ، فيقول :

ان المصري ليحار امام ما يلقاه من الحفاوة والتكريم في تلك البلاد

والمحبوبة ، ثم تشتد حيرته ويقوى شعوره بالعجز عن مقابلة أهلها إحسانا
باحسان . فتثور نفس أمام هذا المعجز الفاضح ، ويرى أنه مهما بذل
فى ثناء وشكر ، فهو مقصر شديد التقصير .

ثم نراه يتابع حديثه أيضا فيقول :

وليست هذه الحفاوة - فيما رأيت - مقصورة على مصرى دون
مصرى ، لعلمه أو فضله أو أدبه ، بل هى حفاوة عامة ، يختصون بها كل
مصرى يلقونه فى بلادهم الساحرة الأخاذة ، فهم يتخذون من كل أديب
مصرى رمزا للادب المصرى ، ويكرمون فى شخصه الضعيف مصر المحبوبة
وأدبها وتفكيرها .

ولقد كان للنمران بن المنذر يوم نعيم فى كل عام . وكان يسعد به
أول من يصادفه فى ذلك اليوم من الناس .

وقد آلى اخواننا اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون والعراقيون
على أنفسهم ليجعلن أيامهم كلها - كيوم النعمان - أيام إسعاد . وأقسموا
ليفرقن بإحسانهم وأفضالهم كل مصرى يعتز بشوقيته ، ويفخر بعروبتة .

ثم يقول :

لقد زرت الاقطار الشقيقة مرتين ، فى عامين متعاقبين ، فما ازددت
بها الا فتنة وهياما ، ثم يتابع الحديث بقوله :

وما أكلب القارىء حين أقول له : اننى مازلت مأخوذا بسحر ما رأيت
وسمعت . ومازلت حالما ، وما أحسبنى أشقى من سحر هذه البلاد ،
أو أتنبه من هذا الحلم اللذيذ الرائع ، الا اذا غمرنى سحرها ، عودا على
جدة .

القومية العربية ، وعواملها

لقد دعا كامل كيلانى الى وحدة الشمل بين العربى فى القاهرة وأخيه
فى لبنان وصورية والعراق وفلسطين . بل فى سائر البلاد ، من الخليج
الى المحيط ، اذ أنهم قد اتفقوا فى الجنس والتاريخ واللغة ، تلك العناصر
التي تعتبر الدعائم الكبرى للوحدة العربية الشاملة .

وكانت نظرة كامل كيلانى الى اللغة نظرة اكبار واجلال ، لانها لغة
البلاد العربية ، وبها نزل القرآن الكريم دسبون السماء ، وأنه متى تمسك

العرب بلغتهم عز جانبهم ، وجمع شملهم ، وشد من أزرهم ، وأصبحت لهم كلمة عالية ، وأصوات مدوية يعربون فيها عن آمالهم وأحلامهم ، حتى يعود لهم مجدهم الغابر التليد .

وهذه النظرة الدقيقة نلمسها منه حينما كتب عن وحدة اللغة ، عندما زار البلاد العربية ، ولمس في أهلها : الشجاعة ، والنبالة ، ومكارم الاخلاق ، وحسن العشرة . مبينا غبطته وفرحته وسروره بهذا اللقاء . فتكلم عن اللغة باعتبارها العامل الاساسي لبناء الوحدة .

القومية العربية ووحدة اللغة

قال كامل كيلاني :

لقد كان يملأ نفسي شعور عجيب، حيثما حللت ، وكيفما أدت لحاظي في تلك البلاد ، فقد كان يتمثل لي أنني سائر في وطني ، وأنى أرى قيمن يكتنفني من الاصدقاء ، مواطنين أعزاء واخوة أشقاء .

وكانت نفسي تطرب لكل عمران القاه في طريقي ، وأشعر انه اصلاح في وطني الذي نشأت فوق أرضه وتحت سمائه ، وأخلصت له المحبة والولاء .

تري : من أين نشأ هذا الشعور ؟ وما مصدر هذا الحرص الشديد على كل خير يصيب هذه الاقطار الحبيبية الى نفس كل شرقي مخلص لشرقيته ، معتز بعرويته ؟ ولماذا يهتم المصريون ببناء هذه البلاد ويشركونهم في افراحهم وأتراحهم على السواء ؟

ولماذا يفرحنا أهل تلك الاقطار بحبهم وإخلاصهم ، ويفرقوننا بأفعالهم واحسانهم ؟ وما مبعث هذا الشعور ؟

فضل ذلك كله عائد الى اللغة العربية التي ربطت أواصر هذه البلاد، ووحلت ثقافتها وآدابها وأمانيتها وأحلامها ، فأصبحنا بفضلها نعجب جميعا بالمتنبى . وابن زيدون ، والمعري ، وابن الرومي ، وأبى نواس ، والجاحظ ، وعبد الحميد ، وابن المقفع ، ومن اليهم من أفادنا الشعراء ، وفحول الكتاب .

وأصبحنا نرى في كل فخر ينسب الى هؤلاء الأفاضل وأضرابهم ، فخرا تالدا لنا ، ومجدا باقيا ، نتباهي به ، مرفوعى الرعوس ، موفورى الكرامة .

وقد أصبح مرئاد هذه الاقطار بفضل هذه اللغة الجليلة لا يكاد يسير في أى مكان منها خطوة الا تمثل له فيها موقف تاريخي مجيد ،

أو حوار أدبي رائع ، أو طرفة بيانه ساحرة . أو قصة خيالية مهجبة :
فيطرب ملء نفسه .

وما زلت إلى اليوم - على بعد الشقة - يتمثل لي المنظر الأخاذ ،
كلما قرأت هذين البيتين :

أنا والله هـالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي !

نهضة الشرق

ثم تكلم كامل كيلاني عن نهضة الشرق مبشرا بالوحدة ، فقال :
ان نهضة الشرق واعداد وسائلها وتهيئة اسبابها وتذليل العقبات
التي تعترضها - لى اكبر مايشغل أساطين هذه البلاد الدين آلوا على
انفسهم ليعزن الشرق بعد اذلال ، وليرفعن أعلام النهضة فى بلادهم عالية
خفاقة ، وليبذلن جهود الجبابة فى سبيل انهاض الشرق من كبوته ،
واقالته من عثاره وكلهم يقول :

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وليس بين الانسان وادراك طلبته ، الا أن يريد ، ومتى وجدت
الارادة بعد ارادة الله ، فقد وجدت الوسيلة .

لقد عانى الشرق من ضروب الاعنات والخمول واثانين الغفلة .
ماعانى ، حتى كاد داؤه يصبح عضالا على المصلحين . ولكن لكل بداية
نهاية ، وبعد الليل النهار ، وزمهرير الشتاء يعقبه صفاء الربيع ، وحرارة
القيظ فى الصيف يعقبها اعتدال الخريف ، وما أصدق المثل القائل :
« كل مالم يقتلك ، فهو ينفعك » .

لقد استيقظت الأمم الشرقية من رقاد طويل ، وأصبحت الوحدة
الفكرية مطلب الجميع وأنشودة الجميع وغاية الجميع ، فما أكاد اشهد
حفلة مدرسية أو اجتماعا خاصا أو عاما الا سمعت فيسه من الاناشيد
والحطب فى تمجيد العروبة وتوثيق أواصرها ما يملأ النفس ثقة ويقينا
بدنو فجر هذه الليلة الطويلة المظلمة .

ونرجو أن يمتد بنا الاجل ، فنشهد مغتبطين فجر هذه الليلة .

متى يطلع هذا الفجر ؟

ذلك ما نرقبه من زعماء هذه البلاد الشقيقة ، وشبابها ، وصحفيها
وحاملى الوية النهضة فيها .

الفصل الثالث

أعماله

بأعمال « الكيلاني » المتواصلة ، سجل له التاريخ في صفحاته .
البيض النضج أجل الأثر ، أذ كتب مصارع الخلفاء ، ومصارع الأعيان ،
وحقق رسالة الغفران ، وشرح ديوان ابن الرومي ، وترجم الأدب .
الاندلسي ، ونظرات في تاريخ الإسلام ، وروائع من قصص الغرب ، وفن
الكتابة ، وموازن النقد الأدبي ، وتناول الكتابة في الرحلات بعنوان :
(ذكريات الأقطار الشقيقة) •

ثم التفت الى فن (أدب الاطفال) فكان رائد قصة الطفل من أول
تعليمه الابتدائي الى الدراسة الجامعية في حلقات متوالية تناسب سن .
الناشئ وتدرجها •

تحقيق المفاهيم الادبية

١ - كامل كيلاني مع أبي العلاء المعري :

(كامل كيلاني) كتاب ضخم يضم بين دفتيه كنوزا حية من الآداب
العربية والغربية • وخصيصة في هذا أنه كالنحل الذي يحوم حول
الزهورات ويمتصها ويمثلها ، ثم يخرجها للناس أدبا ، فيه شفاء للناس •
فهو لا يزال يقرب الى الناس كنوز هذه الآداب المظمورة ، وراء
غموض العباقرة ، في ديباجة صافية ، يفهمها القارئ العادي ، ويرضاها
الاديب •

وصداقة (الكيلاني) لأدباء العربية في عصورها المختلفة - صداقة
وثيقة ، ولكن هذه الصداقة ترتفع الى درجة القرابة بينه ، وبين شعراء
العربية : أبي تمام ، وابن الرومي ، وأبي العلاء •

ولعل «كامل» هو الكاتب الوحيد الذي تستطيع أن تنسق مؤلفاته
في ثبوت مع خطوات الإنسان في مراحل حياته : فتلك (مكتبة الطفل)
وتلك (مكتبة الشباب) ، وتلك (مكتبة الاديب) •

ولقد عنى كامل كيلاني بأبي العلاء المعري عناية كبيرة يذل على ذلك
مايلي :

٢ - أبو العلاء المعري في لزومياته

أبو العلاء رجل سوداوى المزاج ممعن فى السخط على الحياة ،
بالغ فى سخطه وبرمه مدى لا يشركه فيه الا القليل النادر من الفلاسفة
المتشائمين .

وهو مطلع واسع الاطلاع على آداب أكثر الامم التى نقلت آدابها الى
العربية ، وعالم واع بأخبارها ، صادق حين يقول :

لمر فى هذه الدنيا بنو زمن الا وعندى من اخبارهم طرف

وهو مع هذا العلم الفزير بتواريخ الأمم المختلفة ، والرواية الواسعة
لآدابهم المتباينة ، ممحص فطن خبير بتميز الاخبار ، دقيق فى نقصد
زائف القول من صحيحه ، وأبو العلاء ، مفكر ، عميق التفكير ، ملهم
المعنى ، قوى الحجّة عالم من أساطين اللغة ، المشهود لهم بالسبق
والنفوق ،

وهو الى ذلك ، شاعر (فنان) ، عريق فى الفن ، عارف بروائعه ،
خبير بأسرار الجمال ، ومواطن الجلال ، وهو حر الفكر ، واسع الخيال ،
فياض المعانى ، مشرق الديباجة ، لا يعوقه عن بلوغ غايته شأو ، ولا يقف
فى صيبله حاجز .

هذه الميزات الباهرة من سمات شعر أبى العلاء - الحافل بروائع
الفن والفلسفة - حين تقرأ كتاب (اللزوميات) - تطالعك كل صفحة منه
بما يزيدك اقناعا بتلك الميزات العالية ، التى أفردت أبا العلاء ، فأحلتها
أسمى مكان بين شعراء العربية جميعا كما يرى بعض الادباء ، وتعاونت
على تكوين شخصيته الجذابة ، فجعلته من بين جبابرة الفكر وأساطين
الفن المبرزين .

وأى روض من رياض الفكر ، أحفل بروائع الفلسفة والفن من
ذلك الروض الفكرى البهيج ، الذى تتحلى به كل صفحة من صفحات
(اللزوميات) اذ تقرؤها فتطالع فيها سفرا من أسفار الحياة حافلا بأسمى
وأروع ما يبدعه العقل الإنسانى ، وتمثل فيه الخواج النفسية واضحة
جليّة ، لا لبس فيها ولا ابهام ؟

اقرأ كل صفحة من صفحات الكتاب بروية وأناة . . وأنا الزعيم
لك بأنك لن تجد الا ماحدثك عنه من الروعة والجلال ، فاذا حال دون
امتعك به حكمة غريبة عنك ، أو لفظة تنبؤ عنها أذنالك - فحذار أن تعجل

بالحكم على الرجل ، قبل ان تثبت من وجهها الصحيح ، فليس هذا ذنبه وليس من العدل أن يؤخذ بتبعته ، وانما اثم ذلك عائد الى تسرعنا في الحكم ، أو قلة محصولنا اللغوي ، أو علم المأمنا بقسط كاف من تاريخ الامم العربية الاخرى ، التي اثرت في تاريخها وفي أدبها معا ، أو قصورنا في دروس جغرافية تلك البلاد .

وليس على أبي العلاء اثم اذا عثرت كذلك في شعره على كلمة غريبة وتبادرت الى ذهنك كلمة حسبتها البق منها وأبلغ في أداء المعنى ، فمضيت في حكمك لا تلوى على أحد أو على شيء .

نعم ، فان الرجل دقيق ، يعنى مايقول، وليس مغرورا يولع بالبهرج ولا منافقا يكذبك نفسه ، ولا قليل البضاعة يزججها عليك . ولكنه رجل واسع الفكر ، بعيد المرمى . وليس أجدر بالرواية والاناة من قارىء الادب العلاني .

فاذا وقع بصرك على مثل قوله :

لمقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجسود أقوات أمة ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

فتبادر الى ذهنك أن كلمة (مدوج) ثقيلة على السمع ، وان التزمت والاغراب هما السر في التجائه اليها ، وانه كان جديرا به أن يقول بدلها (متوج) ، وما أليق هذه الصفة بالامير ! وما أخفها على السمع ، والطف مدخلها في القلب ! فتريث قليلا ، وانظر الى المعنى - بعد أن فتنتك بهرج اللفظ - وخبرنى بعد ذلك : « أيقابل عرى الفقير تاج الامير ؟ وقل لى بوبك : كم تفقد تلك الصورة الشعرية من الجمال اذا وضع هذا اللفظ بدل ذلك ؟

اذن ، فقد أراد أبو العلاء اللفظة الاولى ، وقصد اليها قصدا ، ولو كان يتكلم نثرا ، لآتى بها ، ولم يرضى بديلا . وما أروع تلك الصورة الشعرية الجميلة التي تتمثلها في هذا البيت الدقيق ، اذ ترى الشتاء زاحفا بقره ومطره وزمهريره ، وترى فقيرا بائسا يستقبل هذا الفصل القاسى عاريا ، لا يجد مايدفئه أو يقيه غائلة البرد ، ثم ترى - الى جانبه - أميرا متدنرا بلخاف فوقه لحاف ، لا يكاد يشعر بالبرد القارص أو يحس زمهريره .

وترى في البيت الآخر مجلودا ، تكسنت أمامه أقوات أمة بأسرها - على حين تجد الى جانبه مسكينا قد حرم قوت يومه .

حسبنا هذا المثل من امثلة عدة ، يفيدنا استقصاؤها ، ولا يتسع الوقت لذكرها ولكن حذار أن يدخل في روعك - أو يدور بخلدك - لحظة واحدة - اننا ننزه أبا العلاء ، واننا نطلق القول اطلاقا ، فنعصمه من كل خطأ ، أو نزعم له شيئا من ذلك ، انما هو انسان قبل كل اعتبار وبعد كل اعتبار .

ولكن كل مانقوله ، هو اننا الفنا منه الدقة والاحكام . وهو لم يعودنا الثروة والهذيان - ولو وضعنا في البوتقة كل ماقدمه لنا من المعادن لألفينا جله ذهباً خالصاً ، غير مختلط بنحاس ، فاذا شذ ذلك شيء فهو الفكر الانساني النقي لايسلم صاحبه من عثار أو كبوة في أثناء تحليقه في سمواته العلاء والشعر كالشجر :

ركب فيه اللحاء والخشب الـ يابس والشوك بينه التمر
ونوجز فنقول :

اننا اذا عددنا نخبة المفكرين والفلاسفة الذين تركوا اوضح اثر في تاريخ الفكر الانساني ، والذين هم ابعد الناس عن الاسفاف واللغو - فان أبا العلاء بلا شك يكون في أعلى ذروة يجلس فيها أساطينهم وجبابرتهم . وهذا كلام نؤكد للقارىء اننا نعتيه تماما ، واننا نقوله له جادين ، واننا ابعد الناس عن المبالاة حين نقرره .

فليس يمتري أحد درس أبا العلاء حتى دراسته في أنه قد خط للشعر العربي طريقا جديدا ، فيه جدية فلسفية ، وانه قد أودع لزومياته اسمى المبادئ الاجتماعية ، وأرقى أساليب النقد الصحيح ، والسخرية الخفية اللاذعة والدعابة القاسية التي تحوى الجد المر ، بين ثناياها ، والتي تكشف عن النفس الانسانية وعن الطبيعة الخالدة .

النقد الادبي

شخصية (كامل كيلاني) تبدو في طبيعته المتواضعة العسالية التي ترغب عن الصيال ، أو الرد على ما يوجه الى صاحبها من نقد ، وكان قد بدأ حياته بمقالات في النقد عام ١٩٢٠ بامضاء (ك.ك) ، أحس بعدها أنه تزعم الميدان وأحرز الشهرة .

فنفض يده من النقد وازدوا ، اذ رآه عملا يوصل الى الشهرة دون عناء ، وهو المريض على أن يصل بالجهد والعرق والسعي الموصول .

ويرى (كامل كيلاني) أن أعظم ماكان له من أثر هو نقله لشوقي حين

وجهه الى كتابة المسرحية الشعرية . فلما كتبها (شوقي) أحس الكيلاني.
بان الخصومة بينهما قد انتهت ، ومن ثم صارا صديقين ارتبطت بينهما .
أواصر الود الصادق ، والحب الاكيد .

والكيلاني يعرض علينا نماذج من النقد الادبي الصميم فيما يلي :

١ - ابن الرومي كيف أغفله صاحب الاغانى

لو نطق الدهر هجا اهله كأنه الرومي أو دعبل
(أبو العلاء) .

الف أبو الفرج الاصفهاني كتاب الاغانى لغرض خاص ، هو اثبات
مائة الصوت ، التي اختيرت للرشيده ، ثم جره ذلك الى الاستطراد ، فذكر
من الطرف والبدائع شيئا كثيرا ، حتى أصبح كتابه كنزا من كنوز الادب .
العربي لامثيل له .

فاذا أغفل أبو الفرج الاصفهاني التنويه بشاعر فحل كابن الرومي .
فهل نجد من يحتج له ؟ وأى دهشة تملكنا ، بل أى حيرة تملأ نفوسنا حين
نجيل البصر فى هذه المجلدات الضخمة التى تؤلف دائرة معارف أدبية
نادرة ، نرى مؤلفها الذى أغفل ابن الرومي قد استطراد أكثر من ألف مرة .
الى ذكر من يستحق الذكر ومن لا يستحقه ، والتنويه بشعراء - ان أجللناهم
مرة - نزهنا ابن الرومي أن يوضح معهم فى ميزان أو يقاس اليهم بمقياس .
ورأيتاهم الى جانبه أقزاما بجانب عملاق ؟

وقد عنى أبو الفرج - فى غير كتابه (الاغانى) - بدواوين من يحبهم
من الشعراء . فجمع ديوانى أبى تمام والبحترى ، ورتب ديوان كل منهما
على الانواع - لا على الحروف - كما عنى بجمع ديوان أبى نواس !

وتعمد الاغفال ظاهر . فان أبا الفرج لم يذكر ابن الرومي فى كتابه .
(الاغانى) الا مرتين ، وكأنه لم يذكره الا لىء اليه ، بدلا من أن يشيد
بذكره .

فقد ذكره فى موضع بمناسبة انتحاله بيتا من الشعر لابراهيم بن .
العباس (١) ، وذكره فى مكان آخر من الكتاب بمناسبة - نكبة سليمان بن .
وهب وابنه (٢) ليظهر لنا مظهر الشامت . وكلا الموقفين لا يشرف صاحبه .

(١) ارجع الى ج ٩ ص ٢٨ من كتاب الاغانى

(٢) ارجع الى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى .

ففى الموقف الأول ، يوقفنا به سارقا منتحلا بيتا من الشعر .

وفى الموقف الآخر يقدمه لنا هاجيا فى غير موقف الهجاء ، ليثبت
ـ أبو الفرج ـ فى الصفحة نفسها ـ رثاء البحترى لسليمان بن وهب الذى
جود فيه ، كما يقول أبو الفرج ـ ثم يتبع ثناءه على البحترى اطراءه
ابراهيم بن العباس والاشادة بذكره .

فاذا لم يكن ذلك اغفالا فهو عندنا شر من الاغفال . واذا لم يكن
أبو الفرج الأريب الفطن الرواية قد تعتمد الاسماء الى ابن الرومى فكيف
يكون تعتمد الاسماء لغير ذلك ؟

لم يكن ابن الرومى خاملا فى عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية
أربعة أبيات من شعره فى هذه الموسوعة الضخمة .

وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملا . وهو وهم يفنده الواقع . فلم
يكن ابن الرومى خاملا ـ لاقى عصره ولا بعده ولكن الناس كانوا يكرهونه
لافحاشه فى الهجاء حتى لم يكذب يسلم من لسانه انسان له خطر . وكان
الهجاء سببا فى قتله .

فاذا قال قائل : ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل ، وذكر كثيرا من أخباره
وهو وابن الرومى متهوران بسلطة اللسان والاقذاع فى الهجاء ؟

قلنا ان عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومى بقليل . وقد مات من
أسماء اليهم دعبل . وحقد الناس عليه . فلم يبق هنالك بأس من الاشادة
بذكره والتنويه بفضله .

أما ابن الرومى فقد أساء الى أعيان الدولة وكبار رجالها ، كما أساء
الى شيوخ الأدب وزعماء الشعر ، ولم تزل أساءته ـ الى زمن أبى الفرج
عائلة بالأذهان . وما زال بعض من أفحش ابن الرومى فى هجائهم عائشا فى
زمن أبى الفرج ، وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقائه .

ولقد كان أبو الفرج من المنتشيعين وكان ابن الرومى متهما بالتشيع
ولم تكن هذه الصلة شفيعا له عنده ، ولا سببا يدعو الى التنويه بذكره .

٢ ـ مجاء البحترى والافخش

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعا . وأفرط فى
شتمه . وكانت للبحترى مكانة بين أعيان الدولة وكبار رجالها ـ حتى بعد
موته ـ وقد رأينا أن أبا الفرج كان يحبه ويشيد بذكره ويعنى بآثاره .

ولا يتسع هذا المقام الضيق للأسهاب في ذلك وشرح الاسباب التي دعت إليها فلنجتزئ بقوله في هجائه من قصيدة :

قد قلت - اذ نخلوه الشعر - حاشى له
ان البروك به أول من الحجب
وفيها يقول :

وحسبه من حياء القوم أن يهبوا
له قفاه - اذا ما مر - بالعصب (١)

ثم يقول :

الحظ أعمى ، ولولا ذاك لم تره
للبحترن بلا عقل ولا أدب

٣ - أدبنا الرفيع :

بدأ (الكيلاني) حياته بأبن الرومي - قبل المازني والعقاد - حيث حقق ديوانه .

وقيل له يوما ما : أكان شؤما عليك كما كان شؤما على المازني ،
فهيضت ساقه ، والعقاد ، فدخل السجن ؟

فقال : لقد كان شؤما على نفسه !

وكما أعد ديوان (ابن الرومي) أصلح ديوان ابن زيدون الذي لم يكن مطبوعا ، كما انه أخرج في سنة ١٩٢٣ ، كتابه عن رسالة الفجران إلى العلاء المعري .

فاذا قيل : ان كتابه عن (الاغاني العالمية) التي ترجمها الى العربية شعرا وموسيقى ، هو أعظم أعماله - وهو الرائد لهذا الفن - قيل : ان هنالك عملا أجمل خطرا ، لم يعرف عنه الناس شيئا بعد بالرغم من جلاله وخطره .

هذا العمل ، يعتبر مفتاح شخصية كامل كيلاني الأصيلة ، فالذين شهدوا « الكيلاني » وهو يتصدر (صالونه) الأدبي ويدير الحديث بلباقته - الفذة يلمحون هذه الحصلة من خصاله .

(١) جماعات الناس .

انه مامن فن ، او علم أو معنى يتحدث عنه الناس في أدب من الآداب
الا وجد له ضربا في اللغة العربية ، وقد جمع عن هذه (المعركة المشتركة
ألفا وثمانمائة صورة) وهو يقول :

انها أبرع عملية فكرية في الغرب بشهادة كبار النقاد ، وقد أردت
ايراد هذه المعاني ، وما يقابلها في الآداب العالمية ، لأقنع الشباب بجلال
أدبنا ، وأضفت اليها خمسا وعشرين عملية فكرية من الادب العربي ،
لاضرب لها في الادب الغربي ، بجميع فنونه وألوانه .

وقد روى الاستاذ (كامل كيلاني) كيف بدأ هذا الاتجاه ، أيام كان
طالبا في كلية الآداب ، يستمع الى أستاذه (برسي وايت) عام ١٩١٨م .
وقد عرف فيه أستاذه ابتسامته ، ذات المعنى ، فقد كان يلاحظه .
فاذا ابتسم قال له أستاذه « برسي وايت » هل لها مثيل بالعربية ؟
وقد بدأ هذا الحوار عندما سأل أستاذه عن رأيه في قصة (هي أو
عائشة) فقال : (تحت درجة الاحتقار) .

وقال الكيلاني الطالب في كلية الآداب :
(ابن الرومي) يقول في هذا المعنى :

قومته بالشتم يهدي له فلم أجد قيمته تسوى
واليكم عرضا قيما ، من المعاني المشتركة بين الادبين : العربي ،
والغربي ، ولنسمعه حيث يروي عن ذلك فيقول :

٤ - من المعاني المشتركة : مرساة السفينة

كان أستاذ الادب الفرنسي يحاضرنا في شعر (لامرتين) . فلما عرض
لقصيدة (البحيرة) طالت بنا وقفة الاعجاب حين تلا علينا المحاضر أول
القصيدة الرائعة التي بدأها الشاعر المبدع بقوله :

هكذا نطل دائما مدفوعين الى سواحل جديدة من الحياة في ليل
الأبدية المظلم لارجع ولا عود .
فهل يتاح لنا أن نلقى مرساة سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن ؟ وهل
يقر قرارنا يوما واحدا ؟ .

طالت وقفة الاعجاب بما وفق اليه الشاعر الملهم من خيال بارع حين
تمثل سفينة الحياة تندفع الى الامام في غير تريت ولا توقف ، منتقلة

دائية التنقل من شاطئ الى شاطئ ، متمنيا لو أتاح له القدر الدائب وسيلة
يقف بها سير الزمن ريثما يتمتع بالبقاء مع من يحب ولو يوما واحدا .

كانت فكرة طريفة حقا ، ولكنها لم تكن وقفا على خيال الشاعر
الفرنسي وحده .

دار بيننا حوار طويل نسيت أن أذكره ، وبقي في ذهني بعض
مأوردته حينئذ من روائع ماقد أبدع شعراؤنا من الصور حين تحدثوا
عن الزمن .

ان مرساة السفينة التي أبدعها خيال (لامرتين) ليقف بها سير الزمن
تذكرنا بالبحال التي أبدعها امرؤ القيس منذ خمسة عشر قرنا في معلقته
الحالدة ، حين تمثل نجوم ليله الطويل ، مشدودة الى جبل يذبل بتلك
البحال المتينة المحكمة القتل ، وقد خيل اليه الضجر أن نجوم السماء
تبثت في أماكنها تثبيتا ، وان الفلك قد كف عن الدوران ، فصاح متبهما :

فيا لك من ليل كان نجومه بكل مقار القتل شدت بيذبل !

والفرق بين الصورتين أن الشاعر العربي ضجر بطول الليل ، فتمثل
الزمن قد كف عن السير ، بعد أن شدت نجوم ليله بالبحل .

وعلى العكس من ذلك أحس (لامرتين) أن ساعة المهجة توشك أن
تفر من وجهه ، فتمنى لو ربط سفينة الزمن بحبل متين ، لتقف عن السير .

وقديما صرخ الشاعر العربي القديم (مالك بن الربيع) حينما انتهت
به رحلته الطويلة الى اجتياز أشجار الفضا ، ونزل عن ناقته ليستريح من
عناء السير . فلذغته أفعى . فلما شعر بدنو أجله ، ورأى السم يسرى في
عروقه ، أنشد قصيدته المبدعة ، متمنيا لو طالبت به الرحلة بين أشجار
الفضا دون توقف ، حتى لا ينتهى به الاستقرار الى هذه الخاتمة قال :

فليت الفضا لم يقطع الركب عرضه وليت الفضا ماشى الركاب ليا ليا

وما أكثر من تمنى طول الزمن ، وما أكثر من تمنى قصره !

وللشريف الرضى شكاية مزدوجة من طول الزمن وقصره جميعا ،
فهو يقول :

أشكو الليالي غير معتبة	أما من الطول أو من القصر
تطول في هجرهم وتقصر في الوعد	هل فلا تلتقي على قدر
يا ليلة كاد من تقاصرها	يعثر فيها العشاء بالسحر

وللمبحترى لفنة بارعة • فهو لا يقنع بوقوف الزمن يوما واحدا ، كما
قنع (لامرتين) فى قصيدة البحيرة - بل تشتد به الرغبة فى استعادة
ماسلف من الأزمان • فهو يقول :

ليت أن الايام قام عليها من اذا ما مضى زمان يعيده
وقريب من هذا قول شيخ المعرة :

فليت الفتى كاليد جدد عمره يعود هلالا كلما فنى الشهر
وقوله :

واطربنى الزمان غداة وئى فليت سنيه صوت يستعاد
وهذا (ابن الفارض) يشارك (لامرتين) فى أمنيته فيود لو وقف
الزمن عن مسيره ، ليمتع بما هو غارق فيه من بهجة يقول :

يا ليل طل ، يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع
ويصف المعرى شعور المحب ، يرجز أن يطول الليل قليلا ، ولو
بذل فى ذلك سواد القلب والبصر ، فيقول :

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

• - أقل من أن يحنقر

قال كابل كيلانى :

كائن احدى الصحف اليومية تنشر قصصا طويلة فى أعدادها
المتتامة لاحت كتاب الغرب ، وكان أكثر القراء شديدى الإعجاب بذلك
القاص •

وفى يوم ما ، خطر لاحت (الزملاء) من الطلاب أن يعرف رأى أستاذ
الادب الانجليزى فى ذلك الكاتب القصصى ، فان الجواب مفاجاة
لسامعيه •

فلم أتمالك أن أبتسم • فسألنى الأستاذ : ما الذى يدعوك الى
الابتسام ؟

فقلت : أعجبنى طرافة الجواب ، فابتسمت •

فقال الأستاذ «ثم ماذا» ؟

قلت : وذكرت قول (ابن الرومي) في مثل هذا الكاتب :

قومته بالشتم يهدى له فلم أجد قيمته تسوى

وقفز الى خاطري قول (دعبل) :

أما الهجاء فبق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فأذهب فانت طليق عرضك أنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقول آخر :

نجا بك عرضك منجى الذباب حتمه قذارته أن ينالا

وقول (أبي نواس) في دعي تعرض له بالشتم :

ما أنت بالحر فيلحي ، ولا بالعبد نمتعته بالعصا

النقاد وكامل كيلاني :

عاش (كامل كيلاني) حياته فكرة خصبة متنوعة ، وكانت آثاره
الفكرية مع دقتها موضع التقدير والنقد والجدل ، وكان النقاد في هذه
الفترة يواجهون الآثار الأدبية التي تصدر بأقلام مستعدة للنزاع
والمرآك .

وقال الكيلاني : (إن شعاري في الأدب هو أنه ليس من حقى أن
أمنع الناقد من الكلام ، ولكن من حقى ألا أصفى إليه) .

أصدر (كامل كيلاني) في فترة عام ١٩٢٨ م الى عام ١٩٤٦ م
عددا كبيرا من المؤلفات تناول الكتاب منها بالنقد هذه المجموعة .

مصارع الخلفاء - مختار القصص - روائع من قصص الغرب -
ملوك الطوائف - فن الكتابة - حديقة أبي العلاء - رسالة الغفران -
ديوان ابن الرومي - ديوان ابن زيدون .

وانتا لو نظرنا الى اختلاف نظريات النقاد والمؤلف وجددناها في
الفالب ، اختلافا لفظيا ، لايمس الفكرة ، ولا الجوهر بأى مساس .

وكان الكيلاني بجانب ذلك ، يؤمن بالعمل الإيجابي للبناء وحده .
فكان يصرف وقته كله في الإنتاج . ثم يدفع الى المطبعة بكتبه الواحد بعد
الأخر ويدعها تحيا ، كأنها شخص حقيقي . ولذلك نجده لا يهتم بالنقد
قدر اهتمامه بالتأليف والإخراج اللذين عنى بهما ، وتغافى من أجلهما .

وكان يؤمن بالحكمة القائلة :

(خير العمل ادومه وأن قل) .

ويرى أن (أبا العلاء) قد أجاد في بيته الذي يقول فيه :

فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لا لأجل ثوابها

تأديب التاريخ

بدأ (كامل كيلاني) حياته الادبية وفق أسلوب يوحى بأن مكانه الطبيعي إنما هو بين صفوف الادباء .

وكان اتجأه الى التاريخ أغلب ، اذ كتب عن : (ملوك الطوائف) و (مصارع الخلفاء) و (مصارع الاعيان) .

ثم اتصل بالادب الاندلسي ، واتجه بعد ذلك - بعنف الى (المعري) حيث عاش معه طويلا ، وتأثر به ، حتى غدا رفيقه في كل لحظات حياته .

ولكن مع كل ذلك اتجه وجهة ثقافية عالية ، اذ قام بدور هام من أجل الانتفاع بالتراث الاسلامي والعربي عن طريق الفن القصصي . فكان دوره ازاء ذلك هو تأديب التاريخ واللمة ، فجعل من التاريخ واللمة أدبا مستساغا ، عن طريق الاقصوصة الجميلة ، والمثل العربي الاصيل ومائحت أولاء نعرض نماذج لذلك ، فنراه يقول :

الوعظ الكاذب

قال الكيلاني :

قال لي ولدي مصطفى بوماما ، وعلى وجهه امارات الدهشة والعجب:

« انك توصيني يا ابي بالصدق ! »

قلت نعم !

قال : «وتنهاني عن الكذب »

قلت نعم !

قال : «كذلك تفعل المعلمة»

قلت : «حسن .. فماذا حدث ؟»

قال :

« حدث أن معلمتي - التي توصيتني بالصدق ، وتمدحه لي وتنهاني عن الكذب ، وتبغضني فيه - قد كذبت » .

قلت :

« وكيف كذبت يا مصطفى ؟ » .

قال :

« انها ضربتني ، فشكوتها اليك ، فلما سألتها أنكرت » .

فما ترون أيها السادة ؟

إذا كان هذا الطفل - وهو لم يعد السادسة من سنه حياته - قد فطن الى التناقض بين قول المدرسة ، وفعالها ، وأدرك انها تأمر بما لا تأمر به نفسها ، أفتروني قد بالغت اذ قلت :

ان أذهان العامة لن تكون أقل من ذهن هذا الطفل ادراكا وفهما لما يقع من التناقض بين أقوال وعاطهم ، ومرشديهم ، وأفعالهم ؟

الحق أن العامة - مهما بلغ بهم الجهل - لن يكونوا أقل انتقادا لوعاظهم من الاطفال .

ولست أدري كيف يأمرنا الواعظ بالصدق ويكذب ؟

وكيف يأمرنا بترك الحلف ويحلف ، كذلك الذي يقول : « والله ما حلفت صادقا ولا كاذبا » او كذلك الذي أراد ألا يبوح بحب معشوقته ، فيباح بها في قوله :

لا لا أبوح بحب بئنة انها أخذت على موافقا وعهودا

وكيف يأمرنا الواعظ بحسن المعاملة ، وهو نفسه أسسوا مثل للمعاملة ؟ .

وكيف تمتلئ قلوبنا خشية من واعظ منافق ، يأمر بما لا ياتمر به ، ويقرر ما لا يفعل ، وكيف نضد بثقتنا الى رجل :

طلب الحسائر وارقتى في منبر يصف الحساب لامة ليهولها ويكون غير مصدق بقيامه أضحى يمثل في النفوس ذهولها

نعم - كيف نصفى الى واعظ وصفه أبو العلاء ، وأبدع فى وصفه
فقال :

رويدك قد غررت - وأنت ندب بصاحب حيلة - يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها - على عمد - مساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين - لا جهة - أساء
فان كان بعض الوعاظ يحسب أن مايقترفه سرا مستورا غير
معروف ولا ذائع ، فما أشد ضلالتة ووهمه !

قال كاتب انجليزى :

إذا دار بخلدك - لحظة واحدة - أن اسرارك التى تحرص عليها،
وتمن فى تكتمها لم يعرفها الناس جميعا، فقد خدعت نفسك خداعا بينا .
وقال الشاعر العربى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس - تعلم

أخلاق الصحابة

لقد أفاد الناس من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وأعماله ،
أضعاف ما أفادوا من أقواله ومواعظه .

كذلك كان الصحابة والخلفاء الراشدون أئمة للأخلاق الفاضلة .
فأفاد الناس من أفعالهم أضعاف ما أفادوا من أقوالهم .

ألا ترون مثلا الى عمر بن الخطاب ، يجلد ولده - عقابا له - ولا
يتهاون فى إقامة الحد عليه ؟

ثم ألا ترون اليه ، وهو يعنف ابن العاص بقولته الحكيمة الماثورة :

(متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

ألا ترون اليه تخطئه امرأة ، فيعترف لها بالغلبة ويلعن الحق
اذعانا ويقول قولته المشهورة :

(أخطأ عمر ، وأصاب امرأة ؟)

وليس هذا الا مثلا من أمثلة عدة يعيننا أن نتقصاها .

ألا ترون الى (كاميل فلا ماريون) مثلا كيف عاقب نفسه بقراءة

— وقد كان قاضيا — فأصدر على نفسه حكما ، كما يصدره على عامة الناس ؟

الم تسمعون قصة القاضي الذى أهانه ابن مليكه — وهو فى منصّة القضاء فزج به فى السجن ، فلما علم الملك بذلك فرح أشد الفرح ، وقال :

(الحمد لله الذى جعل فى بلادى قضاة يقيمون العدل حتى على ولدى نفسه) .

موقعة أحد — عاقبة المخالفة :

كان النصر محققا للمسلمين فى بداية الموقعة .

فلما خالفوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وانتقلوا من مواضعهم كر عليهم المشركون ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، فيهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، واستطاع العدو أن يخلص الى النبي ، فيرميه بالحجارة .

فأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ، ودخلت حلقته من حلق المغفر فى وجنته . وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون .

وبذا تتبين لنا عاقبة المخالفة .

وفاء الصحابة

على أنه فى موقعة أحد السالفة الذكر ، يتجلى لنا مثل عال من أمثلة الاخلاص ، والتفانى فى الوفاء . اذ يقبل الصحابة على النبي عليه الصلاة والسلام مستبسلين يقدونه بأرواحهم .

يأخذونه على بيده .

ويرفعه طلحة بن عبيد الله .

ويحيط به جماعة من الانصار والمهاجرين ليقوه السوء بنفوسهم .

وتتجلى شجاعة المرأة العربية واضحة ، فلا تقل عن شجاعة (جان دارك) التى لا يكاد يخلو من ذكرها كتاب فرنسى من كتب التاريخ ، والتى ملئوا الدنيا اعجابا بها .

تنحاز (نسيبة بنت كعب) الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وتتفانى في الذود عنه ، وكانت تسقى في أول النهار • فلما رأت هزيمة المسلمين أسرع الى النبي تقديه بنفسها ، ضاربة بسيفها مرة ، ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثخنها الجروح !

فصل الصبر « صبر الصحابة »

كان النبي عليه الصلاة والسلام ، يذكر يوما ما قد لاقى من قومه من الجهد والشدة قال :

« لقد مكثت أياما ، وصاحبي هذا (يشير الى أبي بكر) بضع عشرة ليلة مالنا فيها من طعام الا البرير (ثمر الأراك أو السواك) في شعب الجبال » .

وكان عتبة بن غزوان يقول في وصف الشدة التي كانوا عليها بمكة :

(لقد مكثنا زمانا ، مالنا من طعام الا ورق البشام • اكلناه حتى تفرحت أشداقنا ، ولقد وجدت يوما ثمرة ، فجعلتها بيني وبين سعد ، وما منا اليوم الا وهو أمير على كورة) .

وكانوا يقولون فيمن وجد ثمرة فقسّمها بينه وبين صاحبه : (ان أسعد الرجلين من حصلت النواة في قسمه ، يلوّكها طول يومه وليلته ، من عدم القوت) .

الاعتداد بالنفس :

جاء صلى الله عليه وسلم يوما ، ليدخل الكعبة •

فدفعه عثمان بن طلحة العبدري ، فقال :

(لا تفعل يا عثمان • فكأنك ومفتاحها بيدي أضعه حيث شئت)

فقال : (لقد ذلت قريش وقلت)

فقال : (بل كثرت وعزت)

وانظروا الى حوارته صلى الله عليه وسلم ، مع قريش ، حين قالت له تفاخره : (هل أتباعك من هؤلاء الوالى (كبلال ، وعمار ، وصهيب) خير من قصي بن كلاب ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ؟)

فقال : نعم : والله لو كانوا قليلا ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء
ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ، ويقتدى ، فيقال :

(هذا قول فلان)

(وذكر فلان)

فلا تفاخروني بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية .

اتبعوني أجعلكم أنسابا .

والنبي نفسي بيده ، لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر .

فقال له عمه أبو طالب :

« أبى على وعلى نفسك »

فظن النبي أنه خاذله ، فقال : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله
أو أهلك فيه ، ما تركته) ثم استعبر بأكيا ، ثم قام ، فلما ولى ناداه :
« اقبل يا ابن أخى » فأقبل . فقال :

« اذهب ، وقل ما شئت ، فوالله لا أسلمنك لسوء أبدا . »

تدريس النحو والقواعد بالقصص .

لقد بلغ ولوع بعض الناس بالأسلوب القصصى حدا عجيبا :

أذكر لكم - على سبيل المثال - أن مدرسا فاضلا من مدرسى العربية
كان يدرس لنا - فى مدرسة أم عباس الابتدائية - وكانت نتابعه أبهر
النتائج ، وتلاميذه أقوى التلاميذ - وكان السر فى ذلك ، هو اسرافه
فى حب القصص وقد بلغ به ولعه بالأسلوب القصصى حدا مدهشا
جعله يشرح لنا - فى قواعد اللغة العربية - « أثر كان وأخواتها وأثر إن
وأخواتها » بأسلوب قصصى جذاب يحبب فى النحو أزهى الناس فى
النحو .

كان يشرح لنا أثر كان وأخواتها فى معموليها ، وأثر إن وأخواتها ،
كذلك يقول :

المبتدأ والخبر ، أخوان - وهما دائما رافعا الرأس - ففي ذات يوم
بينما هما جالسان فى بيتهما اذ سمعا قرعا بالباب - فأسرعا الى
زائرهما ، ففتحا له الباب ، ورحبا به ، وأرادا أن يقدما له شيئا من
« الحفاوة » بعد أن سالاه عن اسمه ، فقلل لهم « اسمى كان » .

فقالا لها :

« أهلا وسهلا ومرحبا ، لماذا نستطيع أن نقدم لك من قري واکرام ؟ »

فقالت :

« أريد أن أصاحبكما ، وأن تترك صحبتي أثرا ظاهرا أكون معروفة به من بين رفاقكما جميعا » .

فقالا :

« وأى أثر تريدین ؟ »

فقالت :

« أن أنصب أحدكما »

فلا تكاد تتم قولها ، حتى يتقدم اليها الحبر ، مرحبا بشرطها هذا ، راضيا بحكمها .

وانهم لذلك اذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب . فاذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيفان ، فيسألونهم :

« من أنتم ؟ » فيقولون لهم : « نحن أخوات كان »

وبعد أخذ ورد يظفرون بمثل ما ظفرت به كان .

فاذا جاء اليوم التالى جاءت « ان » زائرة . وطلبت اليهما أن يمنحاهما مية ، كما منحها كان بالامس .

فيقدم المبتدا فى هذه المرة مرحبا بشرطها . ولا يكاد يفعل حتى تأتى جميع أخوات ان طالبة مثل طلبها فيظفرن به .

هكذا كان يسلك ذلك المدرس الظريف ، فى شرح النحو وتجييبه الى نفوس الطلبة . وهى طريقة ظريفة كانت تحجب الطلبة فى دروسهم وترغبهم فى الافادة من علمه .

ثم ذكر الكيلانى أمثلة أخرى كثيرة ، وختمها بقوله :

فاذا أردت مثل المعقوق ، ومثل الوفاء ، فامامك حكاية (أبى صبر وأبى قير) وهى من (ألف ليلة وليلة) .

واذا أردت مثل القضاء ، والقدر ، فامامك حكاية (الملك العجيب) وهى من (ألف ليلة وليلة) أيضا .

وإذا أردت مثلا على أن لكل مقام مقالا فاقرا حكاية العم « عمارة »
وهي مشهورة • لا حاجة بنا لذكرها •

وجملة القول أن القصص وضرب الأمثلة محببان الى نفوس الكبار
والصغار معا ، وهما من خير الوسائل التي يلجأ اليها المتكلم ، لتقرير
فكرة ، أو لتعزيز مبدأ في أذهان سامعيه •

موازنة بين جحا وأبي العلاء وابن الرومي

الأسلوب الجحوى :

لقد كان الأسلوب الجحوى ومازال مثالا رائعا يفيض من اشراقه
ومرحه على حقائق الحياة الحرة ، فيكسوها من ألوانه الزاهية جنة
واشراقا •

والأسلوب الجحوى الباسم ، يكاد يقابل الأسلوب العلائى العابس
«حتى ليبلغ جحا - أحيانا - فى سبر أغوار الحياة المرحية الباسمة ، ما يبلغه
المعري بسخريته العابثة القائمة •

تقسيم الأوزاق

فنحن اذا استمعنا الى صرخة (ابن الرومي) وحيرته فى تقسيم
الأرزاق ، وما فيها من تفاوت يحار فى تحليله اللب ، وينقطع منه نياط
القلب ، حين يقول :

لا تعجبن لمرزوق به هوج حظا تخطى أصيل الراى أطرافا
فخالق الناس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أوبارا وأصوافا

أو يقول :

ان للحظ كيمياء اذا ما مس كليا أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاء كما شا « متى شاء كائنا ما كانا

الى آخر ما يزخر به غلاة الساخطين الناقمين من أساليب تكاد
لغرط عنفها تلتهب التهابا ، وتكاد لغليانها تقنف بالحمم ، وترمى بشواظ
نيران الفكر ، ويكاد احاب قائلها يتقطع من الغيظ والنقمة •

ثم رحنا نسمع الى (جحا) ، لنتعرف كيف يعبر عن هذه المعاني

الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته أعنف معانى المرارة.
والجد ، رأينا العجب العاجب :

رأينا فيلسوفنا الساهر يحتكم اليه أربعة من عارفيه ، ليقسم بينهم
(زكية) مملوءة بلحا :

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المغانى الملتهبة التى
عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق ؟

يقبل عليهم متبالها ويسالهم متغابيا : أى قسمة تريدون : قسمة
أم قسمة الله ؟

فيجيبوا على الفور : (بل قسمة الله يا جحا) .

فيعطى أحدهم بلحات خمسا أو سنا .

ويعطى الثانى خفتين أو ثلاثا .

ثم يعطى الثالث كل ما فى الفارعة من بلح .

ثم يحرم الرابع ، فلا يعطيه شيئا !

ويتركه يضرب كفا على كف من فرط الحيرة والدهشة .

فاذا سالوه : أى قسمة هذه يا جحا ؟

أجاب فى تفاؤل الساهر العميق :

أليست هذه قسمة الله ؟ أليس يعطى واحدا دراهم معدودة ،

ويعطى الثانى المئات من الدنانير ، ويعطى الثالث من خزائن الأرض.

وكنوزها ما ان مفاتحه لتنوء بالمصبة أولى القوة .

ثم يترك الرابع ، فلا يعطيه شيئا ؟

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح ، يترجم عن.

قول الكثيرين من كبار الساخطين ؟

اليس فى هذا لون من قول المعرى :

كذلك مجرى الرزق : واد . به ندى

وواد . به فيض ، وآخر ذو قفر ؟

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحت

وقد يرزق المجدود أقوات أمة

فقير معرى أو أمير مدوج

ويحرم قوتا واحدا وهو أحوج

يقول الحلاج :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا

الى آخر مقاله المبدعون الساخظون *

ولقد أكثر الشعراء ، وافتنوا في وصف سوء الحظ ، ولكن قل من بلغ منهم مبلغ صاحبنا في التعبير بالدعابة التالية :

قالوا ان النحس لازمه أياما ، فلم يكدهم بشراء قطعة من الصابون ليفسل ثيابه بها حتى تتلبد السماء بالفيوم وتتكاثف السحب ، وتدوى الرعود وتبرق البروق * وذهب ذات يوم الى بائع الصابون ليدفع له دينه اقترضه منه ، ولم يبلغ دكان صاحبه ويهم باعطائه دينه حتى غامت السماء ، وتكاثفت السحب ودوى الرعد ، وأبرق البرق *

فحمل الى السماء متظاهرا بالدهشة وهو يقول : عفوك اللهم ، فما أردت شراء صابون لغسل ثيابي ، ولكني أردت قضاء ديني لبائع الصابون !

فائدة المصائب

واذا قال (ابن الرومي) :

ومحال أن يسعد السعداء الد هسر الا بشقوة الأشقياء

وقال المتنبي :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وقال أبو العلاء :

غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسمه
وحجر في الحقيقة مثل حجر ولكن الحروف به عكسه

وقال :

جس خط الأطباء بما تألها تولد منه رضا الخابل

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجوى الرائع :

يخبرنا الرواة أن (جحا) سافر ذات مرة لزيارة بنته ، وكان زوج أولاهما زارعا * وزوج الأخرى فخاريا : يصنع الفخار ويبيعه *

فعرج على الأولى يسألها :

كيف أنت ؟

فأجابته : بخير - يا أبتاه - إذا أغاثنا الله في هذا العام بما نامله .
من الغيث • فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطارا غزيرة تحيي موات
أرضنا ، وتجلب لنا ما نرجوه من رخاء وهناءة •

ثم عرج على الأخرى ، ولما سألها عن حالها أجابته :

نحن بخير يا أبتاه - إذا انقطع الغيث عنا في هذا العام ، فادع لنا
الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البوار والتلف ما عندنا من الآنية
والتحف ، التي جهدنا في صنعها من الفخار والحزف • فخرج صاحبنا وهو
لا يدرى بأى الدعوتين يبتهل الى الله ؟

فمصيبة هذه ، فائدة تلك ، واستجابة إحدى الدعوتين - كما ترى - .
شفاء إحدى بنتيه وهناءة لأخرى • ولا مناص من ذلك على أية الحالين ؟
وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبي الذي أسلفناه ، حيث
قال :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ثم يخبرنا الرواة أيضا أن لصا سرق من جحا عشرين دينارا •
فذهب جحا الى المسجد ضارعا الى الله أن يعيدها اليه • وأراد الله
سبحانه أن يلهم تاجرا من أهل القرية كاتت العواصف تفرق سفينته أن
ينذر لفلکم الرجل الصالح عشرين دينارا اذا كتب الله السلامة لمركبه •

فلما ظفر التاجر بالسلامة ، وفى صاحبنا بنثره بعد أن قص عليه
قصته • فاطرق (جحا) برأسه الى الأرض ثم قال ، بعد تأمل عميق :

(تباركت يا رب في علاك)

لو أنني سلفت أحدا هذا المبلغ لأعاده في هدوء ، دون أن يخطر على
باله أن يزعم أحدا أو يعرض حياته للتلف ليرد مبلغى الى •

وهو - كما ترى - تعبير ججوى بارع ينطوى - فى فكاهته - على
أقصى الجهد المرير •

وفى هذا يقول فى بعض خواطره :

وهكذا ترك لى (أبو مرة ظالم بن الحارث) زاده كله ، فرحت آكل
من طعامه هنيئاً مريئاً بعد أن هيات لى كوارثه ، ونكباته ، ما لم تهينه لى
مباهجه ومسراته • الى أن يقول :

وكم سعد سعيد بشقوة شقى • وكم للمقدر من تصريف خفى •
وغرق مركب بمن فيه ، ولم ينج أحد من راكبيه ، فهلك المسافرون
والربان ، وراحوا زادا للسماك والحيتان !

تم هذا كله • فكان ماذا ؟

قامت المنادب فى ديار الغرقى والمناحات ، وأعلنت الأفراح فى قاع
البحر وعمت المباهج والمسرات !

ولولا غرق المركب بمن فيه من الناس ، ما تم للسماك ما يطمح اليه
من بشر وإيناس ، وما كانت الولاثم والأعراس • وكم للمقدر من عجائب
وفنون • والله فى خلقه شئون ! •

موازنة بين الحقيقة والخيال

الخيال كالمجهر يكشف من دقائق الفكرة وخفاياها وأسرارها ، كما
يكشف المجهر دقائق النورة ، وخواص تركيبها •

والخيال هو احتى وسائل الشعاع والكاتب ، والقاص ، تلك التى
يستعين بها على توضيح ما غمض من الحقائق ، وتبيان ما استتر واحتجب
من المعانى الدقيقة والحوالج النفسية الخفية •

وكما يلجأ المصور الى التصوير الكاريكاتيرى ، ليظهر ك على جوانب
خفية لا يصل الى توضيحها التصوير العادى ، وكما يلجأ الحاسبون الى
الرموز الجبرية ليصلوا بها الى حقائق عديدة ، لا سبيل الى استخراجها
بغير هذه الرموز ، فكذلك يلجأ صاحب القصة والمثل والاسطورة الى
تشابه هذه الرموز الجبرية ليتوصلوا بها الى حقائق ثابته ، لا سبيل الى
لدراكها بغير هذا الطريق •

بحوث لغوية

• صور جديدة من الأدب العربي •

• مناظرة الكسائي وسيبويه •

• مسألة العقرب والزنبار •

كان من أثر المناظرة التي قامت بين الهمداني و (الخوارزمي) أن الخوارزمي مات بعد قليل من الزمن ، ولم تحتل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة •

وكان من أثر المناظرة التي قامت بين الكسائي وسيبويه أن سيبويه مات كمدا ، وهو في ريعان شبابه وجن نشاطه ، كما يقولون - ولم يحتل شبابه تلك الهزيمة القاتلة •

وليست الطرق التي لجأ إليها الكسائي بأقل قسوة من تلك الطرق التي سلكها (الهمداني) للتغلب على الخوارزمي والانتصار عليه •

على أن الهمداني ، قد أعد عدته وهياً لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه . وزج به في مجلس كله خصومة ولد ، وأقول في هذه المناظرة : ان الكسائي لم يقصر في اعداد كل الوسائل لهدم سيبويه ، ولم يتعفف عن شيء في سبيل الانتصار عليه • وإذا كان الهمداني قد لجأ الى تملق شهود المناظرة لينصروه على الخوارزمي ، واشترى ذمهم بهزم الحيلة فان الكسائي قد لجأ أيضاً الى نفوذه وجاهه وماله ، واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير المؤمنين وسيلة للتغلب على سيبويه •

ولئن شكونا في المناظرة السابقة قلة المصادر التي نرجع إليها في تحقيقها ولم نجد غير رواية (الهمداني) نفسه - وهي رواية خصم عن خصمه - ان ما نشكوه في هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها ، وتباين روايتها ، وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه •

على أن هذه الروايات ، على الرغم من اضطراب بعضها واختلافه في التفاصيل ، متفقة في الأساس والجوهر • فهي - من أية ناحية رأيت -

وبأية رواية أختت - تدل على أن مسيبيويه قد ظلم ، وأن الحق كان في جانبه .

وقد أجمع علماء النحو واللغة - في زمن مسيبيويه وبعد زمنه - على أن الصواب ما قال . وأن الكسائي كان في الجانب الخاطئ . ولم يشذ عن هذا الاجتماع الاشيعة الكسائي ، والطامعون في ماله أو جاهه ، والمحسوبون عليه ، وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية .

وليس من هذه المناظرة على الحقيقة - ان صح أن نسميها مناظرة - الا نزالا بين مذهبين ، وحربا بين مدرستين ، مدرسة الكوفيين ، ومدرسة البصريين ، ممثلتين في شخص الكسائي زعيم علماء النحو في الكوفة وشيخ مدينة الاسلام ، ومسيبيويه زعيم علماء النحو في البصرة وتلميذ الخليل بن احمد بن سيد أهل الأدب - كما كانوا يلقبونه - وقد لعبت الأهواء من سياسية وغيرها في تغليب رأي الكسائي على رأي مسيبيويه (١) .

على أن فضل مسيبيويه ذائع - على الرغم من انتصار الكسائي عليه - وكتابه الذي ألفه في النحو لم تبطل جدته الى اليوم . ومازال كتاب نحو وأدب معا . وأسلوبه في أعلى طبقات البلاغة . وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب مسيبيويه (هل ركبت البحر ؟) تعظيما لشأنه . وكان الزجاج يقول : « اذا تأملت الأمثلة من كتاب مسيبيويه تبينت انه أعلم الناس باللغة » .

كيف كانت المناظرة ؟

لم يكذب يرد مسيبيويه العراق ، حتى شمر الكسائي أن مركزه العلمي في خطر ، وأن منافسا جديدا يحاول أن يفتصب منه مقام الزعامة .

قالوا : « وشق أمره على الكسائي فأتى جعفرًا ويحيى ابني برمك ، وقال : « أنا وليكما وصاحبكما . وهذا الرجل انما قدم الى العراق لينهب محلي » .

قالا : فاحتل لنفسك فانما منتجع بينكما .

وهكذا دبرت المؤامرة في بيت البرامكة لهدم مسيبيويه . فلما حاز الموعد حضر مسيبيويه . وجاء الكسائي ومعه الفراء الأحمر وغيرهما من

(١) كان العباسيون يقيمون اليوم الكوفيين لانهم نصروهم في دعوتهم لقيام دولتهم ، وكان لهذا الاختيار أكبر الأثر في اتصالهم بالخطأ .

أصحابه • فسأله الغراء عن مسألة فلم يكده يجيبه عنها حتى قال له :
« أخطأت » وسأله عن ثانية ، فأجابه ، فقال له « أخطأت » •

ثم سأله عن ثالثة ، وقال له : « أخطأت » •

فقال له سيبويه : « هذا سوء أدب منك » •

فقال الغراء لصاحبه : « يظهر أن في هذا الرجل عجلة • وحدة »

وسأله الأبحر عن مسائل عدة ، فكان يخطئه في كل جواب يفوه به •

قالوا : « فام ير سيبويه الا أن يكف عن مناقشتها » •

وهنا يقول له الكسائي - ولعلك تلعب في جملته معنى التحقير والاستصغار « يا بصرى » كيف تقول :

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبار • فإذا هو هي ، أو فإذا هو إياها •

قال : « أقول ، فإذا هو هي » •

فأقبل عليه الجميع فقالوا : « أخطأت ولغنت » •

وفي هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه •

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك : « هذا موضع مشكل حتى يحكم بينكم » فيقول الكسائي :

« هؤلاء الأعراب على الباب » •

قالوا : « فادخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه » •

فقال لهم الكسائي : كيف تقولون : « قد كنت أحسب أن العقرب

أشد لسعة من الزنبار ، فإذا هو إياها أو هو هي » •

فقال طائفة : فإذا هو هي

وقالت أخرى : فإذا هو إياها

فقال الكسائي : « هذا خلاف ما تقول يا بصرى ! » •

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبويه - وهو الغريب المستوحش فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأى الكسائي وشيعته : « قد تسمع أيها الرجل ! » •

فلا يكاد سيبويه يسمع هذه الجملة حتى يستكين ، ويسرع الكسائي الى يحيى ، فيقول له ، حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت ، وأن الغلبة قد تمت له : « أصلح الله الوزير ، لقد وفد عليك من بلده مؤملا ، فان رايت ألا تردده خائبا » .

فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم .

وكأنما ألف الكسائي أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه اقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى الى الانفراد بها عند الخليفة . ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيبويه تلك الصدمة العنيفة التي سببها له .
على أن الكسائي طالما اشترى بالمال اللسان والنم :

ألا ترى الى الأخفش يذهب الى الكسائي غاضبا - بعد أن أخبره سيبويه بما حدث له معه - فيسال الكسائي وهو بين تلاميذه ويخطئه في كل جواب يقوله ، فيهم تلاميذ الكسائي بضربه فيمنعهم من ذلك ، خوفا من ذبوع أمره . ويقبل عليه فيمانقه متحجبا اليه ، ويعهد اليه بتعليم أولاده ، ويرشوه بالمال ، فينسيه بذلك ثار صديقه سيبويه ؟

الفكاهة الجحوية في الأدب الشعبي

يقول : (كامل كيلاني)

الفكاهة ثمرة الأرض . كما أن الفكاهة ثمرة العقل . وقد اتخلت كل أمة في كل عصر ومصر ، شخصا من الشخص الجحوية الباسمة رمزا لفكاهاتها ، تسند اليه كل طريف من فنون دعايتها . فكثر الشخص (الجحوية) لذلك وتعددت . فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان .

وقد عرض القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية ، وفصلوا منها أنماطا فكرية ، ألبسوها عرائس أفكارهم ، وأودعوها نفائس توجيهاتهم وآرائهم . فلم تلبث على مر الأزمان واختلاف الأمم أن تشكلت بالوان العصور والأمم التي قبستها كما يتشكل الماء بلون الاناء الذي يستودعه .

وأصبح الرمز الجحوى - على توالى العصور - أشبه بالرمز الجبرى .
يختلف مدلوله في كل مناسبة عما سبقها .

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما لا يطلق .
وطالما استعاذ بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة في كسب قضاياهم .

وربما اغتت التكنة العابرة المهمة - ينطق بها الفكه الموهوب عن
المقالات المستنفضة •

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته أدق الحقايا • فأربنى على الغاية •
وإى فكاهة أبرع من فكاهات (أبى الفصن) (جحا) العربى ، حين أذاع
انه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم ، من فوق مثذنة مسجد الكوفة •
حتى اذا حان الموعد وتجمع الناس من كل مكان ، وضاق بجمعهم الميدان،
أطل عليهم (جحا) من أعلى المثذنة ، ونظر اليهم ساخرا من بلاهتهم ، ومد
ذراعيه ملوحا بهما فى الهواء • وحرك يديه مرة بعد أخرى ، كأنما يهيا
للطيران • وقد خيل لى النظارة أنه جاد فى محاولته •

فلما طال بهم الانتظار ، التفت اليهم ساخرا ، وقال :

(كنت اظن أن جحا هو وحده المنفرد بالجنون فى هذا البلد • فإذا
كل من أرى أجن منه • خبرونى أيها العقلاء : كيف صدقتم أن (جحا)
قادر على أن يطير بغير جناحين ؟

وكيف يصح فى الأذهان أنى على اظهار معجزة قدير
وكيف يصلق العقلاء زعمى ولسست بطائر أنى أطيير
وإى سخرية أبرع من سخريته من وإلى الكوفة حين بدأ شكواه
قائلا :

ان لمولاي الوالى - فيما أعلم - ثورا أحمر •

- صدقت يا أبا الفصن ، فما باله ؟

- نطح بقرتى البيضاء ، فشق بطنها وأخرج أعضائها وقتلها على
الفور •

- وما شأن الوالى بذلك ؟ وإى سلطان لى على الحيوان ؟ أتريد أن
أعاقب الثور على فعلته ؟

ألا تعلم أن دم الحيوان جبار (١) ؟

- صبرا ياسيدى ، وعفوا ، لقد دفعتنى العجلة الى رواية القصة
معكوسة :

(١) جبار : متر •

— ويحك ! فماذا كنت قائلًا ؟

— أردت أن أقول : أن بقرتي البيضاء هي التي نطحت ثور مولاي
الوالى فقتلته •

— ويحك ! لقد تغير وجه المسألة الآن ، فاعد على القصة ، لأرى فيها
رأى من جديد !

واى قارئ فكاهات هذا الساخر المبدع لا يصعب بتهكمه البارع حين
سأله جاره (سالم بن دينار) أن يعيره حماره ، فاستمهلته (جحا) وريثما
يستشير حماره فى ذلك •

ثم عاد اليه متظاهرا بالأسف !

— ماذا قال الحمار ؟

— رفض مصاحبتك !

لماذا ؟

— لأنك — فيما تقول — لم تجزه على خلمته بأكثر من ضربات على
ظهره ولعنات لصاحبه !

اليس هذه الدعابة أروع وأعمق من قول زهير بن أبى سلمى ، فى
معلقته الخالدة :

ومن يصنع المعروف فى غير أهله يكن حمده ذمعا عليه ويندم !
وما ينبغي أن ننسى اجابته لبعض الحمقى حين تهدد (جحا) أن يقتله
إذا عجز عن اجابته عن أربعين سؤالًا مختلفًا بجواب واحد •
فانصت اليه جحا ، حتى اذا قرغ من أسئلته ، قال له متظاهرا
بالجد :

— أتريد جوابا واحدا عنها جميعا ؟

— لا أريد غير ذلك •

— لا أدري :

فتكون هذه الكلمة الحكيمة جوابا شافيا لمسائله الأربعين ، يخلصه
من بطش سيد المجانين !

وما أحكم قضاءه حين ينتقم اليه مختصمان ، يدعى أحدهما على صاحبه أنه أكل خبزه على رائحة شوائه ، ويطلبه بثمن الشواء الذي لم يأكله .

فيسأله (جحا) : وكم ثمن الشواء الذي أعدته له ؟

فيجيبه : ربع دينار .

فيأخذ الثمن من الأكل ، ويسمع الشواء رنين ربع الدينار ، ثم يرجعه الى صاحبه قائلا :

ان رنين المال ثمن كاف لرائحة الشواء !

ويختصم اليه رجلان آخران ، يدعى أحدهما أنه ساعد صاحبه في حمل حزمة من الحطب بعد أن سأله :

— ماذا تعطيني أجرا على مساعدتي اياك ؟

فأجابه : لا شيء !

— أريد أن يعطيني هذا الاشياء الذي وعدني به !

— ارفع هذه الوسادة (المخدة) أيها الرجل ، وخبرني :

— ماذا ترى تحتها ؟

— لا شيء .

— خذ لا شيئك من تحت الوسادة ، واذهب لشانك !

وهذا ، أحمد المعطري من أعلام الشخصوس الجحوية الحديثة في صنعاء ، يأتمر به جماعة من الحبيثاء ليورطوه في مادية عشاء ، فلا يتردد في القبول ، ويصبر عليهم حتى اذا خلعوا نعالهم بالباب ، واستقرهم الجلوس على وسائله ، جمع المعطري (جحا صنعاء) أحذية أصحابه ، وأسرع بها الى السوق ، فباعها ، واشترى بثمنها طعاما لأصحابه .

ثم يطيلون الحديث والبحث عن أحذيتهم على غير طائل ، ويقبلون عليه يسألونه عنها ، فيجيبهم ساخرا :

أحذيتكم في بطونكم !

وهذا (ارتين) « جحا الأرمن » ، يرى أحد البخلاء ، مشرفا على الفرق ، ويسمع أصحابه يتنادونه : هات يلك .

فيقول لهم (أرتين) ساخرا :

لا تقولوا له هات ، فانه ينفر منها ، بل قولوا له : خذ أيدينا ، اذا كنتم جادين في انقاذه !

فاذا تركنا باب السخرية الى ما يشاع عن (جحا) في بلاد العالم ، من ضروب الغفلة ، وجدنا طرائف لا تحصى . فهذا (بات) جحا أرلندة ، يبعث الى صاحبه بالكتاب التالي :

أرسل اليك هذه الرسالة - يا عزيزتي - وأنا غير آمن على وصولها اليك ، لاننى سميت الغن بالبريد هذه الايام . فاذا لم تصل ، فلا تتوانى عن الافضاء الى بذلك ، لأبعث اليك رسالة أخرى !

وأحب أن أنبهك الى أن القلم الذى أكتب به الآن من نوع رديء . فاذا عثرت على خطأ فى رسالتى فعلى هذا القلم الملعون وحده تبعه ماتجدين من غلط !

وهذا (جورج) جحا لندن ، يقسم ليكن عن الحمر ، فلا ينقض على هذه ثلاثة أيام حتى ينازعه الحنين إليها فى اليوم الرابع ، فاذا بلغ الحان ، عرج عليه قائلا :

هنيئا لك يا جورج ، عزيزتك الصادقة . لقد وفيت بمهدك أربعة أيام ، ولا بد من مكافأتك على ذلك بكأس من الحمر .

فاذا جرع الكأس الأولى قال :

هذه مكافأة اليوم الأول . والثانية مكافأة اليوم الثانى !

ثم أسلمته الرابعة الى العشرين !

لمعة تاريخية :

وقد ولد (جحا العربى) أبو الفصن دجين بن ثابت بالكوفة ، وعاصر الباطش الجرى : «أبا مسلم الخراسانى» . وقد نعى خبره اليه ، فاستدعاه واستظرفه ، ودخلت عليه حيلته ، فحسبه أبله أو مخبولا ، وما هو فى الحقيقة بأبله أو مخبول ، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول .

وقد سجل (أبو الفصن) هذا اللقاء فى ذكرياته التى حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهلول ، قال :

لقد نمت بعض أخبارى الى أبى مسلم الخرساني القائد الجبار الذي هزم الدولة الاموية ، وزلزل كيانهما ، وأقام الدولة العباسية ، وثبت دعائمها مكانها وشيد بنيانها ، فامتلات نفسى منه رعبا وفزعا أول الأمر ثم جريت على مألوف عادتي في الاستهانة بما لا حيلة لى في دفعه من الاخطار ، ومقابلته بالإتسام .

لم أكن أعلم لاستدعائه سببا ، فلما بلغت مكانه علمت أن صديقى (يقطين) قد سمع (أبى مسلم) يذكرنى بالحير فى أحد مجالسه ، ويتنادر بما أذاعه بعض الاغنياء عنى من ضروب الغفلة .

فلم يكد يتبين شوقه الى لقائى ، حتى أفضى اليه بمكانى ، فأمر أبو مسلم باستدعائى اليه ، فاعتصمت بالحذر ، وتظاهرت بالبله .

ولم أكد أرى صاحبى (يقطين) مع أبى مسلم ، وليس معهما ثالث حتى التفت اليه متبالها ، وسألته متفابيا : أيكما أبو مسلم يا (يقطين) ؟ . . . فانخدع فى أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته ، واستغرق فى للضحك من بلاهتى .

وهكذا ضمنت الفوز فى البعد عنه ، والنجاة من صحبتته .

وقد ذاع صيت (أبى الفصن) ونبه ذكره فى أوائل القرن الثانى من الهجرة . وأعجب الناس بنا سمعوا به من طرائفه وملحه ، ثم دفعهم إعجابهم به الى أن خلعوا لقبه على كل دعاية مستملحة ، ثم أضافوا اليه ، على مر الزمن ، جمهرة كبيرة من طرائف غيره من الميسمين ، فاختلطت بفكاهاته ، وتعدت التمييز بين الاصل والتقليد .

ولم يلبث (جحا) أن أصبح علما على فن من غنون الفكاهة الشعبية . بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفذاذ الناس .

ثم ظهر الأستاذ (نصر الدين) التركى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

وقد ولد فى أحد بلاد الأناضول ، وكانت (سيوى حصار) مسقط رأسه .

وقد عاصر (تيمور لنك) ، وذاع صيته ، وراجت فكاهاته ، وحول الناس لقبه من (خوجة) الى (جحا) ، لتقارب الاسمين ، وتشابه الشخصين .

ومهما نفغل من الشخصوس الجحوية، وما أكثرها فى بلاد العالم فانة لا نفغل (تل) جحا الالانى ، الملعب (امرأة البومة) وهو معاصر لجحا التركى ، ويكاد يكون نسخة مكررة له ، ان لم يكن هو .

وقد ولد (جحا) الالانى فى مدينة (كنيت لينجن) • ومات عام ١٣٥٠ م وقد أطلق عليه لقب : امرأة البومة ، لان البومة — على الرغم من إجماع الناس على استنكار صورتها — لا ترى فى المرأة الا وجهها طبيعيا . لا يعاب •

والطرائف المنسوبة الى (جحا) فى أى بلد من بلاد العالم تمثل ، أكثر ما تمثل ، ألوانا من آراء منتحليها ، وروح الدعابة الاصيلة فى نفوسهم •

لم يسلم جحا من اتهامه بالغفلة حيناً ، والبله أحيانا • ولقد افتن الناس فى نسبة الكثير من الأقاصيص التى تصوره فى صورة غافل معتوه ، وينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيرى البارع ، الذى رسم به الجاحظ أعجب نموذج للذاهل الحالم ، والصقه بكيان النحوى ، ثم جاء من بعده ، فالصقوه بفيلسوفنا العربى الحالم ، وتمثلوه كما تمثل الجاحظ « كيان » : يسمع غير ما يقال ، ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ • وقد نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

تقول له : زيد ، فيكتب ، خالداً ويقرؤه ، عمرا ، ويفهمه ، بكرا ١
وهى غفلة ، يكاد يتسم بها كل مفكر عميق ، اذا حصر ذهنه فى فكرة بعينها ، وليس مثل «نيوتن» ببعيد عن الاذهان ، حين ألقى بساعته فى ماء يفل ، وأمسك بالبيضة ، وهو يحسبها ساعته ، ليرقب تضجها وشيها !

ولعل هذا المثل يفسر لنا كيف حمل الناس كثيرا من الطرائف والدعابات الجحوية على غير محلها ، وفهموها على غير وجهها •

ومهما يكن من أمر ، فقد كان (أبو الفصن — جحا) يؤثر التباله والتغافل وتنتطوى فى أعماقه نفس صافية راضية مبتهجة • وكان أسلوبه الرائع يفيض من اشراقه ومرحه ، على حقائق الحياة المرة ، فيكسوها من ألوانه الزاهية جنة واشراقا •

أما (تل) جحا الالان ، فقد ميزه بعض الباحثين بقسط موفوز من الغفلة ، كما حلا لغيره أن يعزو اليه قليلا من الحبث واستدلل بعضهم على

ضيق ذهنه وموفور غفلته بما يؤثر عنه من المفالات في تطبيق ما يسمع حرفيا ، والوقوف عند مدلول اللفظ الحرفي غير معنى بما تنطوى عليه في أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية - واقتن المتخيلون في نسبة كثير من المفارقات في هذا الباب ، تمثل أكثر ما تمثل ، ألوانا من آراء متخيليتها وروح الدعابة الاصيلة في نفوسهم ؟

ولكن أى الشخص الجحوى سلم من أمثال هذه الغمزات ؟

ومن أبرع ما قرأناه في الدفاع عن بلاهة جحا ، قول ناقد ألماني :

« ان جحا كان فلاحا ذكيا ، مستقيم الفطرة . وانه لم يلجأ الى التثبث بحرفية ما يلقى اليه من حديث الا رغبة في السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون اخفاء ما يضمرون من احتقار لامثاله من الفلاحين » حين ذاك ، ويستدلون على ذلك - فيما يستدلون - بالقصة التالية :

سأله صائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له : سر في طريقك !

فحسبه لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال بصوت مرتفع .

فأجابه الاجابة الاولى نفسها ، فغضب الرجل وحسبه يهزا به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبي !

فقال له : سر في طريقك !

فتركه الرجل ومشى في طريقه نائرا يكيل له اللعنات . ولم يكذب تبعد عنه قليلا حتى صاح فيه أن يتمهل ، ليلقى اليه بكلمة !

فوقف الرجل متعجبا من غرابة أطواره : وسأله :

ماذا تريد ؟

فقال له في هدوء الفيلسوف :

اذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين !

فأدرك الرجل أن جحا كان على صواب ، فلم يكن في وسعه أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة ، قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطواته !

صديقي جحا ، كما عرفته وأحييته :

تفاؤل دائما :

هذه خلاصة الفلسفة الجحوية . وهي فلسفة تخلق العجائب في كل

شيء .

ولقد كانت هذه الفلسفة هي السيادة العليا ، لدولة انتصرت في الحرب الماضية ، وما زالت هي فلسفتها الى اليوم . ولقد عشت مع جحا وخالطته زمنا طويلا . وما زلت أخالطه . وعرفني وعرفته . فتعلمت على يديه أجل الدروس ، وما لم أتعلمه على يد غيره .

وجحا لا يعرف البكاء ، فهو يرى البكاء نوعا من الضعف يسلم الانسان الى الهموم والاحزان ، ويرى أن التفاؤل كفيلا بإيصال الانسان الى غاياته وأهدافه وحسبكم من جحا أنه يرى أن الدنيا لا تستحق منا هذا العناء من التشاؤم والطيرة ومخالفة الهموم ، بل تحتاج منا الى أن ننظر اليها دائما متفائلين .

دولية جحا :

وجحا شخصية دولية ، وعنصر هام في كل دولة من الدول ، شرقية كانت أو غربية . وتكفي دولية جحا ، للتدليل على أهمية شخصية .

فبينما نجد « جحا العرب » يتمثل في شخصية أبي الفصح ، نجد « جحا تركيا » يتمثل في شخصية « نصر الدين خوجة » . على حين نجد في فرنسا من الشخصيات الجحوية دى كراك ، ودى لاباس ، وميشيل موران .

ونجد في مرسييا وحدها ، بوتلس ، وكالينو ، وماريوس .

ونجد في بنزيس ، دوق دى سان سيمون ، ونجد اربتين في بلاد الأرمن ، وكميل سيمون في لندن ، ومن يات في إيرلنده ، واندولوس في اسكتلنده ، ودافيد في جنوب غربى انجلترا ، وسان جورج في انجلترا نفسها .

ومن الشخصيات الجحوية الشرقية الظريفة ، طلحة الفارس ، والشيخ تشلى الهندى وخوش خال خان الافغانى .

وفى صنعاء وحدها ، على بن زايد ، وحמיד بن منصور ، وأحمد
المعطرى .

نصوص الأدب :

ويمكننى أن أصارحكم بأن معظم الروايات التى تستند الى الشخص
المجوية الاجنبية انما هى فى الواقع مسروقة من تراث أدبنا العربى ،
وهذا هو رأى دون تعصب .

ويمكننى أن أصرح مستشهدا على صدق رأى هذا بما قرأناه فى
احدى الصحف الاسبوعية المعروفة من أن « جحا انجلترا » الحديث
(برنارد شو) سئل عن حاله فقال ما خلاصته :

لم يجد « برنارد شو » من يتحدث اليه غير برنارد شو ! .

وهذه سرقة واضحة ظاهرة ، فقد سئل جحا العربى ذات مرة : لماذا
اعتكف عن الناس ؟ فقال :

بحثت فيهم عنى هو اذكى من جحا فلم أجد الا جحا نفسه . فجلست
اليه ليحل لى مشاكل !

سرقة شرقية :

على أن سرقة أفكار جحا العربى لم تكن مقصورة على جحا الغرب ،
بل سرقتها كذلك نصر الدين خوجة التركى ، واستولى عليها ظلما وعدوانا :

فقد أعلنت احدى المجلات التركية عن مسابقة ، يفوز فيها بجائزة ،
كل من يقوم بتأليف رواية عن نصر الدين خوجة ويذكر كل قصة وردت
عنه .

فكان القراء اذكى من ناشر الاعلان ، فقد سرقوا كثيرا من قصص
أبى الفصن ، واستندوها الى جحا التركى !

الحوادث المجوية كثيرة :

والحوادث المجوية أكثر من أن تحصر ، ويكفى أن نظوف بكم قليلا
لننطق لكم بضع زهرات مشرقة من هذه البساتين الرائعة المثمرة ، وننبه
الى أنه أضيفت الى هذه الحوادث بعض فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين ،
من أمثال :

هينقة ، وفند ، وطفيل ، وأضرابهم • ونسوق هذه الأمثلة اللطيفة
عن فلسفة جحا •

في عيادة طبيب :

شكت زوجة جحا إليه آلاما في بطنها ، وأمرته أن يستدعى لها الطبيب .
فلما خرج من باب المنزل أشرفت عليه من الدور الثاني ، ونادته ، وأفهمته
أنها شغيت ، ولا داعي للطبيب !

ولكنه في ذهوله ، والفلاسفة حاملون، توجه إلى عيادة الطبيب ، ولم
يتذكر شفاء زوجته ، إلا بعد أن وقف بين يدي الطبيب ، فسأله : لماذا
حضرت يا جحا ؟ فأجابه على الفور : لقد شكت زوجتي آلاما في بطنها ،
وأمرتني أن استدعيك ، فلما خرجت من باب المنزل أطلت على وأخبرتني
أن لا داعي لحضورك ، فقد شغيت !

وقد حضرت إليك الآن لأخبرك بهذا حتى لا تكلف نفسك مشقة
الحضور إلينا !

ذكاء جحا :

وطوف ذات مرة في الصحراء ، فصادف رجلا يشع الهيئة ، أمسك
به ، وأراه جثث موتى على قمة الجبل ، ورمسهم مفصولة عن أجسامهم
فسأله جحا : ما هذا :

فقال الرجل : هؤلاء كل واحد منهم طلبت منه أن يجيئني عن أربعين
سؤالا بجواب واحد لا يتغير، فمجزوا جميعا ، فقتلتهم! فهل عندك الجواب،
أو تقتل معهم ؟

فقال جحا : عندي هذا الجواب ، وسئل ما بدا لك •

فظل يسأله السؤال تلو السؤال ، وجحا يجيب بإجابة واحدة ،
حتى أنهى الأربعين سؤالا ، ولم تكن إجابة جحا إلا كلمة هي (لا أدري) ،
فأجلى سبيله !

كلمة واحدة :

وسئل جحا ذات مرة : كم عمرك الآن ؟ فقال : أربعون عاما ، فقل
له : انك قلت لنا هذا من سبع سنوات مضت • فأجاب على الفور : وهل
يغير الحر كلامه ؟

يوقف الزمن :

وسئل مرة ، كم سنة بينك وبين أخيك ؟ فقال سنة واحدة . فاذا مضى هذا العام تساوينا فى السن عند استقبال العام الجديد !

المذهب الجحوى :

والمذهب الجحوى - كما قدمت - مذهب سفاقر فلسفى فى الوقت نفسه ، وليس أدل على ذلك من (قل أويلن اشبييل) الذى كان يحمل فى يده بومة ، وفى الأخرى مرآة ، واشتهر بهذا .

ولهذا تحليل غريب كما أراه ، فهو يشير الى أن البومة هى المخلوق الذى يجمع على التشاؤم منه العالم البشرى كله . فاذا نظرت هذه البومة فى المرآة ، فلا تجد صورتها الا مخلوقا طبيعيا عاديا ، بل قد ترى فى صورتها حسنا وجمالا تدل به على خلق أوفى !

حاجتنا الى فلسفة جحا :

على أننى أنصح لكل عربى أن يتأسى بفلسفة جحا ، ذلك بأنها السبيل الوحيد الذى سيهزم أمامنا الصعاب ، ويزيل العقبات . فاذا وجبت هذه النصيحة أذانا مصفية ، فستكون خير هدية أقدمها لصديقى جحا ، كما عرفته وأحببته .

فن الكتابة :

ليست الصعوبة ، التى تعترض الكاتب أو الشاعر ، فى أن يكتب أو ينظم فى أى موضوع شاء ، بل الصعوبة كلها فى أن يقول ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع .

هكذا يقول بعض كتاب الانجليز وأساطين مدرسى الانشاء . وقد استشهدنا بهذا القول فى مقدمة ديوان ابن الرومى ، حين عرضنا للكلام على دقته التى امتاز بها فى شعره ، كما استشهدنا بقول الشاعر العربى :

رغضلتنى فى القول والشعر أننى أقول على علم ، وأعلم ما أعنى
وهذه هى الغاية الجليلة التى يجب أن يفوق إليها رام سهامه ،
ويجعلها نصب عينيه . وهى الغاية التى نريد أن نبين الطريق المؤدية إليها،

تاركين الكلام الى أساتيد التربية وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم فى تدريس هذا الفن الجميل، ملخصين آراهم حيناً، ومقتبسين بعض عباراتهم حيناً آخر رغبة فى الاختصار الذى تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة .
والى القارى خلاصة هذه الآراء :

اول ما نرمى اليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الانشاء خطة واضحة ، ونبين له منهاجاً يترسم خطاه ، ليصل الى غايته رأساً ، دون أن يضيع وقته عبثاً فى تمرينات متشعبة وغير مجدية . فضلاً عن كونها حبر عثرة فى طريقه ، وحائلاً دون كتابته الصحيحة الرشيدة المنشودة .

والواجب أن نعمل على أن نثبت أقسامهم ، وتمكنهم من الكتابة التى تجمع بين الرشاقة والقوة ، وتكون - الى ذلك - خالصة من الشوائب ، دقيقة التعبير ، حسنة الاداء .

وللوصول الى هذا ، سلوك طريق عملية واحدة ، هى الاكتثار من التمارين الانشائية الى حد قد يظنه البعض غير ضرورى ، أو يرى فيه اسرافاً لا داعى اليه ، اسرافاً فى الجهود ، ولسرافاً فى الزمن ، ولكن سلوك هذه الطريقة الطويلة ضرورى لا مناص منه . وليس طول الطريق دليلاً على أن الطريق الأخرى التى هي أقصر منها خير منها .

الا ترى الى طالب العود أو البيان (البيانو) ؟

قل لى بريك : كم عاماً أمضى فى سبيل غايته ؟

وكم من الزمن مر عليه حتى وصل الى درجة الاتقان أو على الأصح - حتى دنا من درجة الاتقان ؟

وإذا كان ذلك على هذا النحو فما بالك بمن يتطلع الى اتقان الكتابة والتصرف فى فنون القول ؟

ما بالك بمن تطمح نفسه الى مثل هذا المطلب الوعر ؟

وكم من السنين ، يجدر به أن يقضيها ، حتى يصل الى غايته ؟

« ومن يخطب الحسنة لم يفلح المهر » .

ما بالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان ، ويسمو بأسلوبه عن الركافة واللبس والتعقيد ، وما الى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة ، ويجمع الى ذلك ذوقاً فنياً عالياً ؟

أضف الى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء ، انما هو - على

الحقيقة يريد أن يتعلم كيف يفكر ؟ فهو فى بحثه عن الكلمة الصحيحة الفصيحة ، وتخييره الأسلوب الدقيق الأداء ، الموفق التعبير - يسلك كثيرا من شعاب القول وفنونه ، ويمر بمنعرجاته ومنعطقاته الكثيرة ، باحثا منقبا عن الفكرة المنشودة ، متخيرا من بينها أمثل طريق •

وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب ، ويميز بين الحسن والاحسن • وكلما سار فى هذه الطريق تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعاني ، وكان مثله كمثل (سول) ، ذلك الفتى الذى تحدثنا الاساطير ، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعمرانه فظفر بملك عظيم !

تمارين الانشاء :

أما تمارين الانشاء فيجب أن تكون قصيرة فى أكثر الاحيان وأنا الحلف فى الرجاء ، أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الامر كل العناية ، وأن يتجنبوا غالبا المقالات الطويلة ، فهى منهكة لقواهم، مضيعة لوقت المدرسين بلا طائل • وهى ، الى ذلك ، تعود الطلبة أن يجمعوا كثيرا ، وربما عن جوهر الموضوع ، كما يحدث ذلك أحيانا ، ويبعدوا عن أساسه • وشر محبوس الكتابة الشطط •

أضف الى ذلك أن التطويل يعود الطالب الاهمال فى صوغ عباراته بدقة ، كما يعود الاهمال فى تخير اللفاظ ، فلا ترى له الا كتابة مفككة الأوصال ، ركيكة التعبير • على حين أنه لو كتب موضوعا قصيرا ، أحسن تنسيقه ، وعنى بأدائه خير أداء • • لكان ذلك أجدى عليه ، وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب ، فى عدة صفحات ، قد رصفت فيه الكلمات رصفا ، بلا روية ولا احكام •

ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب الى الطريق التى يسلكها ، ثم يدع له وحده تخير الجمل وصقل الاسلوب •

أما الطالب ، فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعاني ما يلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه ، حتى يجيد أدائه •

ويجدر بالمدرس أن يصبح التمارين الانشائية فى الفصل ، أمام التلاميذ كلما كان ذلك ممكنا • فان ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله • ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال ، وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة فى نقط الموضوع ، وتبين وجهات الخطأ والصواب فيه • فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد والاخذ والرد والمناقشة • ويمتلى الدرس خيالا ونشاطا • ويعود الطلبة الكلام والحاجة منذ حدثتهم :

حي بن يقظان^(١)

نشأة المؤلف :

مؤلف هذه القصة الخالدة ، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد ابن طفيل الاندلسي . وهو ينتسب الى قرطبة ، واشبيلية ويسعى تارة بالقرطبي ، وتارة بالاشبيلي . ويعزى الى قبيلة قيس المشهورة وكانت ولادته في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . وقد اشتغل بالطب في غرناطة ، ثم أصبح قاموس هذه المقاطعة . وما لبث أن ذاع صيته في الآفاق ، وعرف فضله بين أفاض معاصريه ، وأصبح علما من الاعلام ، بعد أن اتصل بأبي يعقوب ، عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) . وصار أصفى أصفياه ، وأخلص سماره وندمائه .

أبو يعقوب وثقافته :

أما أبو يعقوب هذا ، فهو يوسف بن عبد المؤمن ، وقد أسنس أبوه دولة الموحدين ، ثم خلفه ولده أبو يعقوب علي (سبته ، وطنجة) . وإتخذ ابن الطفيل كاتم سره وأنيسه وطبيبسه ولم يخالف له رأيا ، ولم يرد له مشورة .

وكان أبو يعقوب هذا مثال الوالي المثقف الناضج ، وقد اختار حاشيته وأصفياه من أعيان المفكرين في عصره .

قال المراكشي يصف أبا يعقوب :

(وكان أبيض ، تملوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، الى الطول أقرب ، في صوته جهارة ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الالفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس بالطريقة التي تكلم بها العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والاسلام .

(١) طالع هذه القصة في مجموعة (قصص عربية) التي أخرجها الاستاذ (كامل كيلاني) .

وصرف عنايته الى ذلك ٠٠ أيام ولايته على اشبيلية في حياة أبيه .
ولقى رجالا من علماء اللغة والنحو والقرآن .

وكان أبو يعقوب - كما يقول المراكشي - شديد (الملوكية) ، بعيد
الهمة ، سخيا جوادا ، أستغنى الناس في أيامه ، وكثرت في أيديهم الاموال
هذا مع ايثار للعلم وتعطش اليه مفرط .

ثم قال : (وكانت له مشاركة في علم الادب ، واتساع في حفظه
اللغة ، وتبحر في علم النحو . ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته الى
تعلم الفلسفة . فأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب ٥ مما اجتمع
للحكيم المستنصر بالله الاموي)

الى أن قال : (ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب
ويبحث عن العلماء - وخاصة أهل علم النظر - الى أن اجتمع له ما لم
يجتمع للملك قبله ، ممن ملك المغرب) .

فصل ابن الطفيل :

قال المراكشي :

(وكان ممن صحبه من العلماء ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة
المسلمين . كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة . قرأ على جماعة من المتحققين
يعلم الفلسفة ورأيت لابي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من
الطبيعية والالهيات وغير ذلك .

فمن رسالة الطبيعة رسالة سماها ، رسالة حي بن يقظان ، غرضه
فيها بيان مبدأ النوع الانساني على النحو الذي يراه . وهي رسالة لطيفة
الجزم ، كبيرة الفائدة في ذلك الفن . ومن تصانيفه في الالهيات رسالة
في النفس رأيته بخطه رحمه الله . وكان قد صرف عنايته في آخر عمره
الى العلم الالهي . ونبذ ما سواه . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة
والشريعة ، معظما لامر النبوت ظاهرا وباطنا . هذا مع اتساع في العلوم
الاسلامية .

وكان أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له : بلغني أنه كان يقيم
في القصر عنده أياما ليلا ونهارا ، ولا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد
حسناته الدهر .

مثال من شعره :

وقد اختار المراكشي من شعر ابن الطفيل قوله في الزهد :
يا باكيًا فرقة الأحباب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبسن
نور تردد في طين إلى أجل
فانحاز علوا ، وخلي الطين للسكن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتنقا
اظنها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما
فيالها صفقة تمت على غبن

ابن الطفيل وابن رشد :

وكان لابن الطفيل الفضل في تقديم ابن رشد إلى السلطان أبي يعقوب . وقد وصف ذلك المراكشي ، فقال :

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب العلماء من جميع الاقطار ، وينبه عليهم ، ويحضه على أكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبه على ابن الوليد محمد أحمد بن محمد بن رشد . فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم .

وكان أبو الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو و « أبو بكر بن طفيل » ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يشي على ، ويذكر بيتي وسلفي . ويضم بفضلته إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى . فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين - بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي وتسببي - أن سألني عن رأى الفلاسفة في إحدى المسائل التي اختلفوا فيها ، فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلم وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة . ولم أكن أدري ما قرر معه ابن الطفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء . فالتفت إلى ابن الطفيل ، وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة . فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن ، من المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت . فعرف ما غنيت من ذلك . فما انصرفت حتى أمر لي بمال وخلعة سنوية ومركب .

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما . فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عسيرة

ارسطوطاليس ، أو عبارة المترجمين عنه . ويذكر غموض أغراضه ، ويقول :

لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها ، بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب ماأخذها على الناس . فإن كان فيك فضـل قوة لذلك فافعل . واني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك ، وقوة نزوعك الى الصناعة . وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة ، وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه .

قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لحصته من كتاب الحكيم أرسطوطاليس .

وقد رأيت لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد ، في نحو مائة وخمسين ورقة . وله ترجمة بكتاب الجوامع .

وقد لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء ، والعالم ، ورسالة الكون ، والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والحسوس .

ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط ، وهو أربعة أجزاء .

وجملة القول انه لم يكن في بنى عبد المؤمن — من تقدم منهم وتأخر — ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا .

مكتبة أبي يعقوب :

رأى القارئ مما أثبتناه ما ينبئه عن شغف أبي يعقوب بأفاضل العلماء ، وإفذاذ المفكرين ، أمثال : ابن طفيل ، وابن رشد ، كما رأى هذا السلطان الخقف في تنشيط الحركة العلمية ، وبعث الآراء الفلسفية . ونحب أن نقتبس مثلاً آخر مما رواه المراكشي في كتابه : (المـجب في تلخيص أخبار المغرب) . ليبين منه مقدار ولوع هذا السلطان باقتناء نفائس الكتب ، وشغفه ببعضها ، وتحايله على ذلك ، حتى أجمع له منها شيء كثير فهو . — كما يقول المراكشي — لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء — وخاصة أهل علم النظر — الى أن اجتمع له منهم ما لم يجمع للملك قبله ، من المغرب .

والى القارئ ما يقوله (المراني) . وكان يملك مكتبة حافلة بروائع الكتب . كما أثبت المراكشي في كتابه — قال المراني :

(انتهى خبر هذه الكتب الى أمير المؤمنين (أبي يعقوب) فأرسل الى دارى ، وانا فى الديوان - لأعلم عندى بذلك - وكان الذى أرسله (كافور الحصى) مع جماعة من العبيد الخاصة - وأمره الا يروع أحدا من أهل الدار، والا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده - ومن معه - ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها .

فأخبرت بذلك - وانا فى الديوان - فظننته يريد استصفاء اموالى فركبت - وما معى عقل - حتى أتيت منزلى ، فاذا الحصى (كافور الحاجب) واقف على الباب - والكتب تخرج اليه - فلما رأى وتبين ذعرى ، قاللى :
- لا بأس عليك .

وأخبرنى ان أمير المؤمنين يسلم على ، وانه ذكرنى بخير ، ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى ، ثم قال لى :

سل أهل بيتك : هل راعهم أحد ، أو نقص شيء من متاعهم ؟
فسألتهم فقالوا :

- لم يرعنا أحد ، ولم ينقصنا شيء .

وقالوا : جاء أبو المسك كافور ، واستأذن علينا - ثلاث مرات - فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه - الى خزانة الكتب ، فأمر بأخراجها -

فلما سمعت هذا القول منهم ، زال ما كان فى نفسى من الروع .

قال المراكشى : وقد ولوه - بعد اخفهم لهذه الكتب منه - ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه :

ذلك مثل نعتزى به ، لنبيين افتنان أبى يعقوب باقتناء الكتب النادرة ، وعنايته بتقريب العلماء اليه ، وحرصه على اتمام روح البحث ، وتنشيط العلماء .

وفاة ابن طفيل :

وهكذا قضى ابن طفيل حياة مباركة ، حافلة بالدرس والتأليف . ولم يأل جهده فى تشجيع أعلام عصره وتقديمهم الى السلطان . وقد رأى القارى أثر ابن طفيل فى تشجيع ابن رشد ، والاخذ بناصره . وقد دارت بينهما مراسلات نفيسة فى مراجعة كتاب الكليات ، ذلك الذى ألفه (ابن رشد) .

وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ما على :

(ولابن رشد مقالة أيضاً في اتصال العقل بالإنسان : مراجعات ومباحثات بينه وبين أبي بكر بن طفيل) *

ومات ابن طفيل عام ٥٨١ هـ . (١١٨٥ - ١١٨٦ م) في مراکش . واحتفل معاصروه بتشييع جنازته . ومشى فيها السلطان . وظفر بما لم يظفر به إلا القلائل ، فقد قدره أهل عصره - كما قدرته العصور التالية - حق قدره .

أما مؤلفاته الأخرى ، فلسنا نعرف عنها إلا رسالتين في الطب . على أن قصة (حى بن يقظان) كافية وحدها في نباهة شأنه وخلود ذكره على مر الأزمان وتماقب العصور .

أثر ابن طفيل في عالم القصة :

ولو اغفلنا فلسفة ابن طفيل كلها ، وبراعته الفنية في تجلية غوامض العلم وتحليل النزعات الإنسانية ، وشرح المذاهب الفكرية الدقيقة ، ثم نظرنا إلى أثر قصته في القصص العالمي . . لتملكتنا الدهشة . فان (حى بن يقظان) قد أرضعته طبية - كما في قصته - فلم يجد صاحب قصة (سيف بن ذي يزن) أمامه إلا اقتباس هذه الفكرة في مستهل تلك السيرة الممجيبة ، وسار على غرار ابن طفيل ، فأختار لسيف بن ذي يزن - بطل قصته - طبية ترضعه ، ثم ارتقى المؤلف . . من الطيبة . . إلى جنبة ، تمطف عليه ، فترضعه ، فيكسب من لبنها شجاعة الجن وقوتهم .

وقد أوحى هذه الفكرة إلى مؤلف (طرزان) أن يختار لبطل قصته قردة ، يترعز وينشأ بينها ، ويحاكي أفعالها . .

فلما جاء (دانييل ديفو) القاص الانجليزي المشهور اقتفى أثر ابن طفيل ، وسار على مناهجه في تأليف (روبنسن كروزو) ، الذي عاش وحده في جزيرة نائية مقفرة ، ولم يفته أن يختار لبطل قصته رفيقا يسعده في آخر مقامه في الجزيرة ، وهو (جمعة) . كما اختار ابن طفيل (أسال) رفيق ابن يقظان ، الذي التقى به في المرحلة الأخيرة من القصة .

وقد قرأنا ما يعزز رأينا هذا في المقدمة الرائعة التي صدر بها (ليون جوتييه) طبعته الأنيقة لقصة (حى بن يقظان) اذ يقول :

وان قارئ هذه القصة (حى بن يقظان) ليرى فيها روح ألف ليلة

وليلة ، حيث اتخذت اسلوبا فلسفيا صوفيا عاليا في كثير من مواقفها المعجبة كما يرى فيها - بالإضافة الى ذلك - أصل (روبينسن كروزو) التي كتبت على غرارها ، ولم يفت مؤلفها أن يقتبس شخصية (جمعة) .

ولا بأس أن نقتبس كلمة موجزة من تلك المقدمة النفيسة ، لنطلع القارئ على رأى أروبي ناضج فى خطر هذه القصة العربية الغثة ، قال (جوتيه) :

(ان القارئ ليدعش ، اذ يرى تعاليم ارسطو مبثوثة فى اثناء هذه القصة ، وقد امتزجت بالوان بارعة من الصوفية العالية ، والآراء الفلكية والجغرافية والفلسفية ، فى أسلوب عصرى حقيق بالاكبار .

وقد أبدع المؤلف فى أمثلته التى عرض بها الى دقائق التشريح ، وتحليل التربة والمناخ ، واكتناه أصول الدين والنظم الاجتماعية ، والرموز البارعة التى عبر بها عن دقائق فى فن مؤلفها ، وبراعة أسلوبه الجامع ، وابداعه فى تجلية غوامض الفلسفة وتدرجها ونماؤها واتجاهاتها ، وجمع أطرافها ، ولم أشتاها المبعثرة ، فى نسق علمى اخاذ ، يتجلى للقارئ فى ذلك القصص الطبعى الجذاب) .

أثر قصة روبينسن كروزو :

على أن قصة (روبينسن) ، تلك التى وضعها مؤلفها على غرار قصة ابن يفظان ، قد أوحى الى كثير من القصاصين أن يحاكيوها ، ويسيروا على نهجها . فلنجتزئ منها ما يلى :

(وفى عام ١٧١٩ م ٠٠ شرع (ديفو) فى تأليف القسم الاول من (روبينسن كروزو) وكان حينئذ قد قلب الستين من عمره .

وسار على نهجه كثير من الكتاب ، ولم ينجح - من بينهم - غير كتاب (روبينسن سويسرا) أو الاسرة السويسرية ، ذلك الذى ألفه (رودولف نيس) أستاذ الفلسفة فى جامعة برن ، وقد اختار لقصته أسرة ، عدها ستة أشخاص ، ينجون من الغرق ، فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة ، ٠٠ يسودها الوئام والمحبة . فتتقلب على المعبات والمتاعب) .

ابن يفظان وجعفر :

ولو شئنا أن نتقمى اثر القصة العربية ، التى أبدعها ابن طفيل فى روائع القصاصين لامتد بنا نفس القول ، واحتجنا الى رسالة مستفيضة .

فلنحتزىء بالإشارة السريعة الى أثر قصاصنا (ابن طفيل) فى الكاتب
العبرى (سويقت) ، مؤلف جلفر ، وقد أظهرها مؤلفها عام ١٧٢٦ م .
فى مدينة لندن ، فأحدثت دوبا هائلا وآثارا بعيدة المدى :

ان القارئ الباحث ليدعشه ما يراه فى قصة جلفر من وجوه الشبه .
حتى ليحزم بأن (سويقت) كان يسبح فى كثير من الأجواء التى سبج
فيها ابن طفيل . فاذا نظرنا الى تلك المحادثات المستفيضة التى دارت
بين جلفر وبين العمالقة - فى الجزء الثانى - وبين جلفر والحياد الناطقة
فى الجزء الرابع - وهى محاورات تدل على مسخط صاحبها على الجنس
الانسانى ونقمتة من ضلالهم وأفانين غرورهم - رأيناه تبسيطا ، وشرحا
لنعمته (ابن يقظان) وسخطه على ضلال الجنس الانسانى .

واذا نظرنا الى فطنة ابن طفيل الى اهتدى أسلوب فى تعليم لغة
أجنبية . . الأسلوب المباشر وهو . . فيما نعلم . . أول من كشف لنا
الستار عنه - وجدنا (سويقت) يلجأ فى قصته الى تقرير هذا الأسلوب
نفسه فى تعلم جلفر لغات الاقزام ، والعمالقة ، وسكان الجزيرة الطيارة
والحياد الناطقة .

انظر الى قول ابن طفيل :

(ثم سمع - ابن يقظان - صوتا حسنا وحروفا منظمة لم يعهد مثلها
من شئ) (من أصناف الحيوان) .

وانظر الى قول سويقت على لسان جلفر :

(ثم دار بين الجوادين حوار طويل ، هو أقرب الى أن يكون حوار
فيلسوفين ، يريدان أن يتعرفا ظاهرة غريبة ، لا عهد لهما برؤيتها من
قبل) .

وانظر الى دهشة جلفر من لغة الاقزام والعمالقة وسكان الجزيرة
الطيارة . فانك واحد ما يحقق هذا الرأى ، ويقنعك بصدق ما ذهبنا اليه
أما مشكلة الثياب فقد ظهر فيها توخى (سويقت) نهج ابن طفيل
ظهورا بينا .

فانظر الى قول ابن طفيل :

(ونظر - ابن يقظان - الى أشكال - أسال - وتخطيطه ، فراه على
صورته وتبين له أن المدرعة التى عليه ليست جلدا طبيعيا ، وإنما هى
مثل لباسه هو) .

فاتخذ (سوفيت) من هذه اللقطة البارة نواة لقصته فى بلاد
العمالقة ، كما استفاض فى تبسيط هذه الفكرة وتحليلها فى قصة جلفر
مع الجياد الناطقة فهو يقول فى الاولى :

(وما كاد (العماق) يرانى حتى دهش وأخذ قشة صغيرة من الارض
- فى حجم العصا التى نتوكا عليها فى بلادنا ورفع بها أطراف ثوبى ،
وهو يحسبه غطاء وهبته لى الطبيعة ، كما تهب الى الطيور الريش ،
ونفخ فى شعرى ليتبين وجهى بوضوح • ثم نادى خدعه وقال لهم فيما
فهمت من دهشته وشارته :

(انه لم ير حيوانا يشبهنى فى حقوله !)

وقد شغلت مسألة الثياب هذه ارحب مكان فى نفس (سوفيت) •
فلم يكتف بتقريرها فى هذا الموضع من كتابه ، بل عاد اليها فى الجزء
الرابع حين عرض لحوار الجوادين الناطقين ، وتناولها فى هذه المرة
مسها مستفيضا فى شرحها وتحليلها ، فقال :

وتكفنى هذان الجوادان ، واجالا ابصارهما فى ، وظلا يطيلان
التأمل فى وجهى وينى زمنا يسيرا •

ودنا منى أحد الجوادين - وهو الازرق المرقش - ورفع رجليه
الى اماميتين الى قبعتى ، وعبث بها ، فنزعتهما من فورى • ودهش الجواد
الآخر ، وهو الجواد الاحمر حين أمسك بذيل ثوبى ، فرآه غير ملتصق
بجسدى •

الى ان قال :

وظل السادة الجياد حائرين فى امرى ، وهم يحسبون أن ثيابى
ليست الا جزءا طبيعيا من جسمى • ثم افتضح السر للسيد الجواد بعد
ذلك • فقد وقع لى حادث - لم يكن فى حسابى - اضطررت الى الانفضاء
اليه بحقيقة امرى •

وانى موجزه للقارىء فيما يلى :

لقد اسلفت القول : اننى كنت لا انزع ثيابى عن جسدى كل ليلة ،
الا بعد أن استوثق من نوم كل من فى الدار • فاذا تم ذلك غطيت جسدى
بتلك الثياب •

وظللت على ذلك شهورا عدة ، ثم حدث ما لم يكن فى الحساب ،

فقد بعث السيد الى - ذات صباح - بخادمه الجواد الأشقر الصغير . ولما وصل الخادم الى غرفتي دخلها من غير أن أظن الى حضوره ، فقد كنت مستغرقا في النوم . وكانت الثياب قد سقطت عن جسدي - في أثناء النوم - وكان قميصي مرفوعا . فلم أكد استيقظ على أثر الضجة التي أحدثها الجواد حتى بدأ الارتباك والقلق على سيناه . ثم عاد الى سيده فقص عليه ما رآه وهو لا يكاد يبين لاختلاط الامر عليه .

وقد رأيت أثر هذا الحادث في نفس السيد ، حين ذهبت اليه لاجيبه ، واثقتى أوامره . فبداني بالسؤال عما سمعته من خادमे عن قصتي . وأخبرني أن خادمه قد أدهشه متى أن يراني في صورتي مختلفتين أشد الاختلاف . في يفتلي ومنامي . لانه رأى أجزاء بيضاء من بشرة جسمي ، ورأى أجزاء أخرى سمراء قاتمة .

وكننت - الى هذه اللحظة - أخفى سري عن ذلك السيد وغيره من الجياد ، حتى لا أسلك في زمرة الأناس الجبناء الملعونين . ولكنني اضطررت الى الافشاء بحقيقة أخرى - على الرغم مني - بعد أن افترض السر .

ولقد كان من الطبيعي المحتوم أن تظهر الحقيقة التي حاولت اخفائها جهدي . فقد بدأ البلي يدب الى حداثي وثيابي من طول الاستعمال . ولم يكن لي بد من الاستعاضة عنهما بغيرهما من جلود الباهو ، أو غيره من الدواب . وكان ذلك كله مؤذنا بافتضاح السر بعد زمن طويل .

وقد اضطررت - حينئذ - أن أخبر السيد أن من عادتي ، وعادة أبناء جنسي - من الآدميين - أن يغطوا أجسادهم بثياب يصنعونها من صوف بعض الدواب ، بأصلوب فني خاص ، يحذقه النساج عندنا ، ليستروا بها أجسادهم عن الانتظار ، ويتقوا وطأة الحر والقر .

فعاظمته الدهشة ، واستولت عليه الحيرة مما سمع ، لانه لم يكن يعرف أن أحدا من المخلوقات في حاجة الى ارتداء اهاب صناعي غير اهابه الطبيعي الذي وهبه الله له .

وأردت أن أقنعه بصحة ما أقول . فرفعت شيئا من ثيابي وخلعت حداثي وجوربي . فدهش حين رأى بياض صدري وقدمي . وامسك ثيابي بسنيكه ، وظل ينعم النظر ويمعن في الفكر فيما يراه ، ثم يلمس جسدي ، ويدور حولي حيناً فحيناً ، وهو لا يكاد يصدق بصره فيما يخبره به .

وبعد افتكار طويل ، التفت الى السيد ، وجمع صاهلا في احترام
وأدب واعياب ، « لست أشك في أنك يـاهو (لاتنى لا أدري فرقا
جوهريا بينك وبينه - فالجسمان متماثلان - والوجه والقدمان لا تختلف
إلا اختلافا يسيرا - فإن الشعر كثيف مرسل على جسد الياهو ، وكذلك
جسده ، لأن أغلبه لا يغطيه الشعر ، وأسنانك قصيرة جدا - على عكس
مخالب الياهو الطويلة - وأنت تمشى على قدمين اثنين على حين يمشى
الياهو على أربع » .

ورآنى السيد - حينئذ - أرتجف من البرد - فرئى لحالى - وأمرنى
أن أرتدى ثيابى ، حتى لا يصيبنى سوء .

فشكرت له عطفه على وبره بى ، ثم توسلت اليه أن يعطينى من اطلاق
اسم (الياهو) على ، وأظهرت له تقزى وارتياحى وسخطى على هذه
الدواب الحبيثة التى تتجلى فيها الفظاظة والغلظة واللؤم .

وأقسمت عليه أن يكف عن هذه التسمية المفزعة ، وأن يامر أسرته
وخدمه وأصدقائه أن يعفونى من سماع هذا الاسم البغيض المقيت .

ولو أن هذه القصة (قصة حى بن يقظان) قد كتب لها أن تبقى
فى اللغة العربية وحدها ، لمددنا ذلك من توارد الخواطر ، ووقع الحافر
على الحافر - كما يقولون - ولكنها ترجمت الى أكثر لغات العالم .

فقد ترجمها (بوكوك) ، وهو من رجال الكنيسة ، الى اللاتينية .
ثم نقلها (أشويل) الى اللغة الانجليزية .

وقد طبعت هذه الترجمة اللاتينية ، فى (أكسفورد) عام ١٧٠٠ .
أما ترجمة (جيو أشويل) فقد طبعتها فى السابع والعشرين من يناير
عام ١٦٨٦ فى لندن .

وقد طبعت رسالة (حى بن يقظان) بالقاهرة والقسطنطينية عام
١٢٥٥ هـ .

ثم طبعتها (ليون جوتيه) بالجزائر عام ١٩٠٠ م . كما طبعت فى
سرقسطة فى هذا العام نفسه .

وترجمها الى الانجليزية - عن أشويل - كاتب يسمى (سيون
أوكل) وطبعت فى لندن .

وترجمت الى الهولندية عام ١٦٧٢ ، وأعيد طبعتها فى نوتردام عام
١٧٠١ م .

ونقلها عن - نسخة يوكوك اللاتينية - الى الالمانية بريتنوس ،
وظهرت في فرنكفورت عام ١٧٢٦ م .

ثم ظهرت ترجمات المانية اخرى عام ١٧٨٢ ، بأقلام كل من أيشهورون ،
ومونك ، دابرج . وظهرت ترجمة اسبانية بقلم « فرنسيسكو بوجي » .
وقد ظهرت لها ثلاث طبعات في مصر : احداها بمطبعة الوطن ،
وثانيتهما بمطبعة وادي النيل ، وثالثتها بالمطبعة الخيرية .

وقد ترجمت هذه القصة الى العبرية . وكتب عن مؤلفها كاتب
اسباني « يونس براج » رسالة عنوانها : ابن طفيل - حياته وآثاره -
وقد طبعها عام ١٩٠٠ . ونوه بروكلمان بهذه الرسالة في « تاريخ
الاداب العربية » .

وهناك قصة فارسية عنوانها « سلمان وأسال » ، ألفها « جامي » .
الفيلسوف الفارسي ، بوحي من قصة ابن طفيل ، التي ترمز الى اشتباك
العقل الانساني بعالم المحسوسات .

وقد ترجمت القصة الى الفرنسية ، وطبعت في باريس عام ١٩١١م

شعره العام :

عرف الناطقون (بأخوات) الضاد ، الأستاذ « الكيلاني » : نصيرا
للادب العربي يكشف كنوزه المحجوبة وراء السنين ، ويداب في هذا
السييل ، دعوب المجاهد العزوم يزاحم ليله بنهاره .

فلقد اذاع في السنين العشر الاخيرة ، ادبا من ادب الفريية ، كان
معروفا في الناس باسمه ، أو رسمه . فنشره كاملا ، وجلاه شاملا ،
وأطلع الناس منه على الزهر المنثور في الروض المتصور .

أما المجالس الادبية ، فقد عرفت الأستاذ « الكيلاني » محدثا لبقا
فما حل مجلسا إلا أفاض فيه من طبعه وفنه : صيغة أدبية جلواء ، يعينه
على ذلك استذكاره - وهو القارئ للادب العربي - لكل قارئ في الادب
العربي من روائع وطرف فلا يتناقل أهل المجلس احدولة في ادب ، أو
خلق ، أو فكاهة ، إلا مهد لها ، وجال بقده فيها ، فتذكر نظائرها
وأشباهاها ، مناقدا هذه ، مستملحا تلك ، مستربلا في موازنة ، ملوها ،
الدقة والوثاقة والائزان .

والاستاذ الكيلاني نقيب الادباء ، صاحب نكتة بارعة . وهو فيها :

قوى المعارضة ، مرهوب الجانب ، متوقد البديهة . وليست النكتة على لسانه عملاً يتزلف إليه ، حتى يزلف له . وإنما عنده طرف ولطائف من روح الحديث وروحيه ، تجيء وفقاً للكلمة يفكك لها ، أو رداً على كلمة ينقم منها .

وللاستاذ (الكيلاني) شعر لم يظهر في صحيفة ، ولم يثبت في كتاب ولكن ذاع صيته في الأندية الأدبية سريعاً ، كما تذاق البشرى سريعاً ، فأصبح شعره حديث تلك الأندية . وأصبح المتادبون بين راو عنه ، أو أخذ منه !

على أنه كان يهرب من وصفه بالشاعرية هروب « فاعل الخير » من ذكر اسمه . ولكن الشاعرية تكمن في شعره كمن الرى في الماء ، والبرق في الهواء .

واليك هذه القطعة الرائعة ، وقد جاء بها على لسان والدته (جان) يطل قصة (صياد الخيال) التي ترجمها عن « جان سارمان » وهي أولى مواد كتابه (روائع من قصص الغرب) وذلك كمادته في تدعيمه للكتاب من شعره المصفى ؛ والقطعة تقول :

عصف الدهر بآمال لى محب مستهتام
وأبى الشوق على عي من محب أن تنام

كم تدوقت أفاريس قق وصال ومدام
وتحملت من الهجاء ر أفانين السقام

سوف تخبون نار حبي ما لأمر من دوام
ثم أنسك ، وتنسا نى ، وينسانا الغرام
ثم لا يبقى - على الأبد - سام حب ، أو خصام

فإنك لتقرأ في هذه الأبيات القصيرة ، قصة الحب من بدئها إلى نهايتها ، في أرق لفظ ، وأدق وصف . وإنك لترى فيها التصوير الصادق المؤثر لآلام المحب واشجانه ، وفنون الهوى واللوانه . ثم ترى - فى ختامها - كيف تكون السلوة ، والنسيان ، وكيف أن الزمان في سيرة الوئيد ، يحمل معه - رويدا رويدا - كل ما انطوت عليه الصدور من عواطف الحب والبغض ، ويمحو من صفحات العقول شيئاً فشيئاً - صور الأحياء والمحوصوم .

ويلقى من حوادثه المتتابعة رمادا يطفىء النيران المشبوبة في
القلوب . فلا يلبث المحب المولع أن تخبو ناره ، ويستقر على النسيان
فراره ، ولا يلبث المفيظ المحنق أن يشغله صديق عن خصيم ، ويلهيه
جديد من الحياة عن قديم .

شعره القصصى

ثم نستعرض من قطعة شعرية من تأليف الكيلانى تحكى حوارا
بين « صفاء » و « أم قشعم » فحينما عرف صفاء حديث العنكب
استولت عليه الدهشة والحيرة فلم يسمع قولها حين قالت :

وقد تاكل العنكب الجنـدبا	وتهلك الزنـبـار والعقربا
وكم بعوض - فى حبالاتها	راح أسيرا يبتغى مهربا
فخدت - بالسـم - أعصابه	وانشبت - فى جسمه - المخلبا
وقد يصيد الضفدع العنكبا	كما تصيد البومة الارنبـا
وتاكل القطـة فارا ، ولا	تبقى على فرخ صغير ، حبا
وقد ألفنا كل هذا فلم	ندهش له ، مها بدا مفربا
لكن ما حير البائنا	ان تاكل العنكبـة العنكبا

فاجابته (أم قشعم) :

ان تاكل العنكبـة العنكبا	او تاكل الأم ابنا الانجبا
او ياكل الآباء أبناءها	او تاكل الاخت اخا أو ابنا
او تاكل الزوجات أزواجهما	فليس هذا حادثا مفربا

اما ترى الاسماك قد شابهت	فى قتل ما تنجبه العنكبـا
تلتهم الكبرى صغيراتها	وياكل الحوت ابنه الاقربا
وانتم الناس على رشدتكم	صرتم مثبـالا للذى مضربا
لم ترحموا طيرا على غصنه	رقل لحنا شاققا معجبا
ولم تفيثوا بالناس معلما	ولم تقيلوا عاثرا مذنبـا
وكم أكلتم لحم اخوانكم	ميتا ، ولم ترموهم غيبـا
فلا تعيوننا بأدوائكم	فقد غدا من عابنا : أعيبا !

من السيرة النبوية :

حوار (مسرحي) حول مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

لم يكد عبد الله - والد الرسول صلى الله عليه وسلم - يتزوج السيدة آمنة .. حتى حملت منه .

- ولم يلبث الموت أن اخترم حياته في مستقبل شبابه ، في مثل عمر الورود النضرة ، والأزاهير الشذية العطرة .

- مات والده قبيل أن ينعم برؤية ولده العظيم ، الذي أشرقت الدنيا بنوره الباهر .

- ولد الرسول بعد أن مر على وفاة أبيه عبدالله عدة أشهر ، فأودع الله تعالى قلب جده عبدالمطلب حبا خالصا للرسول .

- ذلك من الطاف الله .

- فعنى به جده ، كما عنى بأبنائه .

- شد ماحزنت آمنة ليتم ولدها .

- لا عجب في ذلك ، فقد كانت آية من آيات الوفاء لزوجها .

- وكانت الصدمة قاتلة فلم ينقدها غير الصبر .

- لقد كان (عبد الله) زين الشباب في عصره .

- كان ، أعلى أمثلة الشجاعة والبر والنجدة طفلا وشابا .

- كما كان ، أعلى أمثلة في الوفاء والبر صديقا وزوجا .

- فلا غرو إذا استولى على زوجته الحزن لفقدته .

- ولا عجب إذا برح بها الحزن ، وبلغ منها مبلغا لم يكد يصل اليه

أحد .

- صدقت ، فقد جف لبنها من شدة الألم .

- كيف عاش طفلها بدون غذاء ؟

- لقد حرم ثدى أمه ، ولكن الله أرفأ وأرحم من أن يترك رسوله

وصفيه بلا غذاء ، بعد أن حرم لبن أمه .

- تداركته عنابة الله ، فكيف ؟
- أرضعته ثوبية .
- من ثوبية ؟ فما سمعت بها قبل اليوم .
- جارية عمه أبى لهب .
- ما أعجب قدرة الله ، وما أخفى الطائفة .
- كأنما أرضعته جارية عمه أبى لهب ، ليكون سببا في موت سيدها . غيظا .
- صدقت ، فقد كان أبو لهب من الد أعداء الرسول ، وقد هلك من شدة الغيظ ، حين سطع نجم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتشرت ، رسالته وتبينت حجته .
- هلك بعد أن تم انتصار الرسول في غزوة بدر .
- وكانت البدويات يقبلن على مكة في موسمين من كل عام — كمة
- تعلمان أيها الصديقان — ليرضعن أبناء الأغنياء .
- ولكنه لم يكن غنيا ، فمن التي تولت أرضاعه ، وكيف رضيت أن ترضعه بلا مقابل ؟
- أنت على حق في هذه الملاحظة ، فقد توجهت المرضعات إلى أبناء الأغنياء . ولم يخطر ببال احداهن أن تقبل على أرضاع ذلك الطفل الصغير .
- كانت كل واحدة منهن لا تكاد تسمع أنه يتيم حتى تعرض عنه .
- فأنصرف عنه جميعا .
- وبقي بلا مرضعة ؟
- كلا يا صاحبي العزيزين — فان الخير لم ينضب معينه من الدنيا . فقد عطف عليه قلب احدي هؤلاء البدويات .
- الآن ذكرت ماتمنيه ، لقد تطوعت حليلة لأرضاعه ، بعد ان انصرفت عنه اول الأمر .
- من أي القبائل كانت حليلة ؟

— من قبيلة بنى سعد .

— فكيف رضيت بإرضاعه بعد أن أنصرفت عنه ؟

— أراد الله سبحانه ألا تجد حليمة أحدا من أطفال الأغنياء ترضعه ،
فأرأت أن رحلتها غير مثمرة ، ولم تشأ أن تعود إلى البادية بغير طفل
ترضعه .

— لم لا تقول : إن الله قد ألهمها العطف ، وقنف في قلبها الرحمة
له والجذب عليه ؟

— بلى . . وقد حيب إليها ذلك الواجب الإنساني النبيل . وكافأها
الله على صنعها أجزل المكافأة .
— أى مكافأة تعنى ؟

— لم تكد تصحبه معها حتى يسر الله تعالى لها سبيل الخير ،
لقد فتح لها ذلك الباب . . كل أبواب الخير والبركة . وجلب لها كل
أسباب الرخاء والنعيم .
— كافأها الله على معروفها ، فسمن أغنامها ، وكثر بناتها ، وأفاد
عليها .

من الملاحظات الكيلانية :

ظل

أنت يا ظلى رفيق ممرى

أنت يا ظلى مجيب الأمر

كم تطول :

ثم تبدو غاية فى القصر

أو تزول :

ثم تصدو بعدها فى أثرى

إن ظلى مشبهى كل الشبه

كلما استيقظت صبحا ينتبه

قافزا خلفى طورا ساكنا

دائما لم يدرك معنى الكلام

حركتى كلها يأتى بها

لا ينالى سهلها من صعبها

انت قد حيرتني في أسرى
انت خلفي حين أجري تجرى
أنت أن أبطئ .. بطئ السر
أي تقع لك ؟ لست أدري

فخر المجد

أنا مازلت تلميذا صغيرا
ولكنني على صغري مجد
أسر الى العلا سيرا حيثما
وأنشط نحو غايتها وأغدو
وليس يضيرني صغري إذا لم
يثبطني عن العلياء جهد
وليس بنافعي طول وعرض
إذا لم يفنني فهم ورشد
فليس يقاس انسان بشير
ليعرف قدره ، ان جد جد
ونبت القمح مرتفع قليلا
ولكن ، هل له في النفع حد ؟
هو القوت الذي نحيا جميعا
به ، وهو الذي ما منه بد
وقد يعاو سنابله نباتات
قليل النفع يعجب حين يبدو
وكم هود من القصب اعتلاه
وما هو رفعة للقمح ند
وفخر المرء علم يبتغيه
وأخلاص يحطيه ، ورفع

وسوف آكون مثل القمح نفعاً
وقلما أحرز السبق المجد
نعم ، واجب فعل الخير جهدي
واسهر للسلا والمجد ، بمد
وتدرك همتي شرقاً ومجداً
وحسبي غاية .. شرق ومجد

صحبة الكرام

شقائق النعمان ضمت مرة
فى طاقة للزهر والقرنفل
فاكتسبت فى لحظة من طيبه
ومن بصاحب ذاكمال يكمل

مفتاح القراءة :

كم من حديث معجب شائق
تلاوه امى وابى من كتاب
هذا عجيب ، فمتى اغتسدى
مثلهما اقرا بين الصحاب

كم ذا اجيل العين فى صفحة
منقبلا لا يعترينى فتور
وانثنى من غير جدوى وما
فهمت شيئا بين تلك السطور

لكن امى اذ رأت حيرتى
قالت : اذا ما رمت هذا المرام
فهاك مفتاحا لاسراره
هاك كتابا فيه سر الكلام

فيه حروف الهجاء

تبدا بالاحرف فيه ، ولا
تلبث حتى تقرأ المفردات .
وتقرأ الاسطر من بعلمها
فيصبح الصعب من الهينات

وبعد جد واجتهاد ترى
أنك تتلو مثلنا فى الكتاب
تقرأ ما يشجيك من قصة
ومن حديث معجب مستطاب
فى اى وقت تشاء

الجمال الساحر

حسن هذا الخد ان قيس به
كل حسن كان عنه قاصرا
كم شمس قد خبت أضواؤها
حين لاح الخد نورا باهرا
فجمال الوجه والأخلاق قد
سطعا للناس صبحا سافرا
منطق حلو ، وحسن رائع
جمعا هذا الجمال الساحرا

وطنيته

عاصر الاستاذ « الكيلاني » النهضة الفكرية منذ بدايتها ، وساهم
فيها منذ قيامها ، وأودى في سبيلها .

ولما اشتعلت الثورة المصرية ، قدف في أتونها بقصائد من الشعر
الحماسي الجديد ، دلالة على وطنيته الصادقة . ولقد أجرت إحدى
الصحف استفتاء حول العوامل التي تحقق الحرية للوطن . فأجاب
الكيلاني : اني اترك الجواب للبحثى ، شاعرنا العربي العظيم ، بما أبدع
من صور المتناحرين والمتباغضين ، وصور ما يعانيه قومه ، من تكبات
«الفرق والانقسام والتناحر والبغضاء ، حتى أصبحت الصدور تغلى
من القيظ غليان الرجل . والبحثرى يقول في هذا المعنى :

وفرسان هبجاء تجيش صدورها
باحقادها ، حتى تضيق دروعها
تقتل من وترأز نفوسها
عليها بأيد ما تكاد تطيمها
إذا احتريت يوما ، ففاضت دماؤها
تذكرت القرى ففاضت دموعها
شواجر أرماع ، تقطع بينها
شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا افترقوا عن وقعة جمعتهمو
لاخرى : دماء ما بطل نجيعها

تذم الفتاة الرود شسيمة بعلمها
إذا بات - دون النار وهو ضجيجها
حمية شعب جاهلي ، وعزة
كليبية أعيال الرجال خضوعها !

فالتفرق .. كما ترون .. اصل الاحتلال ، ومصدر البلاء . والاتحاد
وسيلة الاستقلال - ومحقق الجلاء ، ولا معنى عن الاتحاد بأشمل معانيه
وأوسع حدوده . وتوحيد الجهود والنيات ، والاهواء والاهداف .

والكيلاني القصيدة التالية :

يانيل ، قد قام منا للعلا داعي
من بعد اغفائة طالت وتهجاع
يا نيل ، أنا افقنا بعد نومتنا
نبني العلا بفؤاد غير مرتاع
يارب شيخ حناه الدهر أقصده
سبهم الردي بين أحناء واضلاع
قد غيبوه فلم نسمع له خبرا
وازهقوا روحه لم ينعه الناعي
فاضت الى الله ، تشكو ظلم قائلها
وجور وغد : لثيم الطبع : خداع

قالوا : أولئك أغنام مضللة
يلم أشستاتها من عندنا راع
قلنا : بنو النيل آساد مجمعة
فرقتموهم بأحزاب وأشباع
نعم ، وأوقعتمو ما بينهم أحناء
بدرتموها بأرض ذات امسراع
فاخصبت ونمت ' بأن نومتمنا
وقد افقنا ، فنوقوا خيبة الساعي

منزله بين معاصريه :

تجد الامم الحية كلما نبغ فيها أحد ابنائها في اية ناحية من نواحي
عظمتها ، اشادت بذكره ، واقامت له حفلات التكريم : حكومة وشعبا ،
تقديرا للفضل ، وتشجيعا على الازدياد فيه ، وايدانا بأن النبوغ يجد

من الاجلال والاكرام المحل العظيم ، فيجرى الكرام على آثاره ، وينبه الغافلون ، ويعمل العاملون .

واني سامرد كلمة من مجموع كلمات عدة ألقيت في حفل تكريم « كامل كيلاني » سنة ١٩٣٤ ، اذ نادوه نقيبا للادباء .

قال كاتبها حين ذاك :

لقد رأينا مصر ، وقد أخذت ، منذ نصف قرن أو أكثر ، تنفض عنها غبار الخمول الذي خلفته عهود الظلم والجهالة ، وظهر فيها أفراد ضربوا في نواحي العظمة بسهم ، وأفادوا بلادهم ، بما وهب لهم من اخلاص وعبقريّة ، فاحظتهم في سويدائها ، وأوسعت لهم على صفحاتها ، يخطون فيها جليل ما صنعوا ، فيكون لهم في ميدان الشرف ذلك المجد الوطيد .

على أن الاستاذ (كامل كيلاني) فاز بالقدح المصلى في الادب والفن .

ثم ان أشعاره تقتضي أن نكرمه في شخصه .

هذا الى أن التأليف والترجمة ، من اللغات الحية التي أضاف بها آثارا وروائع من أقلام كتاب الغرب ، وذخائر من نفائسهم الى لفتنا الشريفة — كل ذلك نقله بأسلوب ممتع — فخدم اللغة والبلاد خدمات ، مهما أطنب القلم في البيان ، فلن يبلغ غاية الوصف .

وهذه كتب الادب التي قدمها نابفتنا للمتأديين بعد أن البسه من عبقريته ، وخلع عليها من ثمار قريحته ، فحرب مواردها ، وجعل تلوقها على طرف الثمام ، حتى جعل أمثال : « ابن الرومي » و « المعري » و « ابن زيدون » يخطبون هذا العصر بلغة يفهمها الكبير والصغير .

هذا شأن (كامل كيلاني) في هذه النواحي .

أما شأنه في القصص ، وفيما يتعلق بأبنائنا ... رجال القدر ، فمجب أي عجب !

وما الاقمار في بهائها ، أو الشهباء في عليائها ، بأكبر شهرة وأجل نفعا من قصص (كامل كيلاني) المفيدة .

فصار اسمه مرادفا لآية التأليف . وقد فتح لنا فتحا في تربية
الاطفال ، على خير مثال .

ثم تابع المجلد في حفلة التكريم حديثه قائلا :

وحسبنا شهادة بعض أولئك الذين ينفون عليه فضله ومكانته .
فقد أنطقهم الله بالحق انطاقا سجل على صفحات الخلود .

والانسان يحار : هل يهنئه على ما امتاز به من حسن الاختيار
وبراعة الاسلوب ، أو يهنئه بما هيا لايناننا من كتب وقصص ، كان لهما
أثر طيب واضح في تنشئة عقولهم ، أو يهنئه على وفرة نشاط ، وجهت
مجهوده وجهات . . . كلها صالح ومثمر ، أو يهنئه بنبوغه في عديد اللغات .
ونقله لنا منها مشكاة وضاعة مصابيحها ، فكانت للادباء والمتأديين نهجا
قويما في تربية اللوق ، والتوسع دائرة الخيال وتزويده بثروة علمية
جليلة ؟

والحق . . . اننا نهنئه بهذا جميعا ، ونهنئه به وطننا انجبه كما انجب
كثيرا من الموهوبين ، وخلد العاملين .

الفصل الرابع

الرائد يتحدث

التربية وضرب الامثال :

كثيرا ما لجأ أبى ، فى تربيته ، الى ضرب الامثال ورواية القصص ،
اذكر لكم ان بعض أشقياء الصبية اغرائى بتسلىق الترام ، وأنا صغير ،
فرأى أبى ، وأنا أقبل ذلك ، ولم أره .

فلما عاد الى المنزل ، قال لى :

« لقد حدث اليوم ... يا ولدى ... أمر عجيب . فقد هوى ولد
شقى تحت عجلات الترام ، فقطعت شطرين ، وظل الناس يلعنونه ،
ويلعنون أهله .

وهنا ذكرت لك يا ولدى ، فحمدت الله على حسن أدبك ، وبعدك عن
هذه الدنايا .

اقول لحضراتكم : ان الأرض كادت تفوص بى ، وكان هذا آخر
عهدى بهذا العمل المقيت .

وفى ذات يوم قلت له .. وكنت طفلا : « انى لأخشى العفاريت
والحشرات المؤذية ، حين أصعد سلم البيت فى ظلام الليل » .
فقال لى :

« من الذى يحرسك وانت نائم ؟ » .

قلت : « هو الله » .

قال : « اظن ان من يحرسك وانت نائم : لا يحرسك وانت .
يقظان ؟ » .

فكان ذلك آخر عهدى بالخوف .

ولقد قرأ لى أبى كثيرا من القصص فى فجر حياتى كان لها اثر كبير
فى نفسى وأدبى وخيالى .

القدوة الحسنة :

وجدت أبى ، وأنا طفل ، لا يكاد يترك الكتاب من يده ، فأحببت أن
أكون مثله ، وقلدته فى ذلك ، حتى أصبح ذلك دأبى الى الآن ، وانقلب
التطبع طبعا أصيلا .

ووجدته يصل الرحم - فقلدته فى ذلك .

ولم رأيتة ... على عكس هذه الصفات ... فقلدته فيها كذلك ،
وما اصدق قول القائل :

مشى الطاووس يوما باعوجاج	فقلد شكل مشيته بنسره
فقال : علام تمشالون ؟ قالوا :	بدأت به ونحن مقلدوه
مخالف سيرك المسوج واعدل	فانا .. ان عدلت .. معدلوه
أما تدرى أبانا كل فرع	يجارى بالخطى من أدبو ؟
وينشأ ناشئ الفتيان منا	على ما كان عوده أبوه

روائع من احاديث جحا :

نشأت - منذ طفولتى - أحب الكتب . وقدنما هذا الخب فى نفسى
حتى أصبح كلفا وهياما . وقد فيجمنى كثير من اصصدقائى فى كتب
لا أستغنى عنها ، واستاثروا بها دونى . ورأيت - والحاجة تفتق الحيلة -
أن أضع حدا حاسما لهذا العبث . وظللت أتلمس الحجج والمعاذير ، حتى
اهتديت الى حجة بارعة أعتمد بها لكل صديق - مهما بلغت منزلته من
نفسى - لأتخلص من اعارته أى كتاب يطلب .

ولم اخترع هذه الحجة اختراعا ، ولكننى اقتبستها من منطق
(جحا) وما أبرع هذا المنطق فى التخلص من مآزق الحياة ومشاكلها
المقعدة !

فقد زعموا أن (جحا) اضطر الى الخطابة ، فقال لسامعيه :
« أتعرفون ما أقوله لكم ؟ » .

فقالوا : (لا)

فالتفت اليهم ساخرا ، وقال :

أذن فأنتم جهلاء ، وليس فى قدرى أن أخطب فى الجهلاء .

فلما أخرج في موقف ثان - أصر سامعوه على أن يقولوا له عكس ما أجابوه به في المرة الأولى ، فما كاد يقول لهم :

« أتعرفون ما أقوله لكم ؟ » .

حتى قالوا له : « نعم » .

فنزلا عن منصة الخطابة ، وقال لهم :

اذن فأنتم في غير حاجة الى ما أقول !

فلما أخرج للمرة الثالثة ، أصر سامعوه على أن ينقسموا فريقين :

احدهما يقول « نعم » ، والآخر يقول : لا .

وما كادوا يفعلون حتى التفت اليهم جحا هازئا ، وقال : (الآن

علمت أن فريقا يعلم ما أقول ، وفريقا يجهله ، فليخبر من علم ١٠٠ من لم يعلم !) .

وهكذا خرج بلباقته من تلك المأزق الحرجة .

وقد اخترعت حجة تدفع عنى الحاف المستعيرين « واقتبسها من

منطق (جحا) البارع ، فكنت أقول لكل من تحدثه نفسه أن يفجئني في كتاب : قائلا :

« ان هذا الكتاب رخيص الثمن ، فما أيسر عليك أن تشتريه . وان

كان لمنه نادحا ، فما أجدرك أن تتركه لي ، ولا تفجئني فيه . فليس في قدرتي أن أشتريه مرة أخرى . ولست أستطيع أن أستغني عنه يوما واحدا » .

طريقة احتفاظه بالكتب :

وهكذا استطعت أن أحتفظ بكتبي كاملة غير منقوصة ، ونما عدد

الكتب الى أن ضجر بها أهل بيتي ، وضجرت بها معهم ، حتى كنت

أفضل - في بعض الأحيان - أن أشتري الكتاب الذي تعرض اليه حاجتي ،

على أن أبحث عنه بين تلك الأكاديس .

وبعد افتكار طويل اهتديت الى طريقة أخرى ، تيسر على البحث ،

وتقطع أمل كل مستعير ، تلك هي أنني قسمت الكتب الى مجاميع ، تضم

كل مجموعة منها عدة كتب ، يصعب حملها ، ويستحيل التفريط فيها .

وربما وقفت في فترات راحتي بين قماطر الكتب ، وأجلت لحاظي في

محتوياتها ، وأطلت تأمل ، وأنا مأخوذ بروعتها كما يؤخذ البستاني
بروعة الأزهار .

واني لأذكر أننى وقفت - ذات يوم - أتخير كتابا أقرؤه على عادتي
فاسترعى بصرى مجلد ضخيم يحتوى ديوانى (الشريف الرضى)
(البحتري) . فعجبت من ضخامته ، وقلت فى نفسى :

(هذا مجلد شرقى ضخيم ، يحوى مئات من الصفحات ، فى كل
صفحة منها أسطر كثيرة ، وفى كل سطر منها فكرة رائعة ، أخرجها ذهن
ممتاز ، وصاغتها شاعرية فنة . فإى كنز حافل هذا المجلد الضخم ؟)

وذكرت بعض المفتونين الذين يتعمون الادب العربى بالعمق ، ويفترون
على أفذاذ العرب أنهم سطحيون ، وهم لم يقرءوا من كل هذه الكنوز الا
مختارات متفرقة مشوهة ، لم يوفق مختارها فى شىء كما وفقوا فى الاهتداء
الى مجموعة يجلد بهم أن يطلقوا عليها اسم مجموعة مختارة من الشعر
السخيف !) وقلت فى نفسى :

(لعل هؤلاء الأدباء الناشئين المفتونين بالادب الغربى - الادب
الغربى وحده - يقبلون على هذه الكنوز الشرقية ، ويمتعون أنفسهم بما
فيها من طرف وروائع فيعرفوا أى تراث خلف لنا أسلافنا العرب ؟)
وما زلت غارقا فى هذه الذكريات حتى قطعتها على فكرة طارئة .

فقد بدأت نفسى تتنمر ، وخشيت أن أرمى بالأسراف والاغراق
والتحسب الكاذب للعرب وللكتاب العرب . فلم أطلق صبرا على هذه
التهمة ، وأردت أن أبرر - بينى وبين نفسى على الأقل - ما ذهبت اليه من
تمجيد هذه الروائع ، وأثبت بالبرهان أن فى كل سطر من هذه الصفحات
جمالا أخاذا ، فتعمدت الا اختار شيئا ، وأصررت على أن أفتح هذا المجلد
الضخم ، وأقرأ أول ما يقع عليه نظرى من الشعر ، وأقيد فى حافظتى ،
وما كدت أفعل حتى طالعنى قول (الشريف الرضى) :

غرست غراسا كنت أرجو لقاحها وأمل يوما أن تطيب جنساتها
فإن أثمرت لى غير ما كنت آملا فلا ذنب لى أن احتظلت نخلاتها
ففرقت فى عالم من السحر ، ثم قرأت بعد هذين البيتين الابيات
التالية :

من يكن زائرى يجدنى مقبما أتبع الفائتات بالرائعات

من ندامى - على الهموم - قعود
يلعسون الأذقان بالراحات
كلما أذرفوا الدمع أمدت
هم دواعي الهموم بالعبرات

فتركت الكتاب ، وقلت فى نفسى :

(حسبى من القلادة ما أحاط بالعنق) ، ورحت منتشيا من فرط
السرور بما قرأت ، وقد اقتنعت نفسى بأن حماستى للعرب وآثار العرب
روائع العرب ، حماسة رشيدة ، لا أثر للاسراف والتعصب فيها .

وكما اننى أقرأ روائع الفحول من أفلاذ الشرق ٠٠٠ من غير أن
أكلف نفسى الاختيار ٠٠٠ لوثوقى من ابداعهم دائما ، فأننى شديد الولع -
كذلك - برؤية أى بلد شرقى ، من غير أن أعنى نفسى بتخيره ، لاننى أحس
لكل بلد من البلاد الشرقية روعة لا تقل عما أحسه لغيره من هذه البلاد .

وكما اننى أمقت المفاضلة بين الشعراء ، والمفاضلة بين الكتاب ،
والمفاضلة بين القصائد ، فأننى أمقت - كذلك - المفاضلة بين البلدان !
وليس من الانصاف أن تفاضل بين حسناوين ، قد كملت محاسنهما ،
وبرع جمالهما ، واستبد سحرهما . ولكن من البر بنفسك أن تتمتع
بحسنيهما .

كيف نجيب القراءة الى الأطفال ؟

زعموا أن ثلاثة أمراء ، اخوة أشقاء ، خرجوا يتنافسون فى مهر
بنت عمهم السلطان ، بعد أن تواعدوا على الاجتماع آخر العام فى مكان
بعينه ، ليروا من يظفر بأنفس هدية للأميرة .

فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحرى ، يرى فيه المناظر
كل ما يدور بخلده ، ولو كان فى أقاصى الدنيا .

وظفر ثانيهم ببساط سحرى ، يحمل ركبته محلقا به فى كل جو
من الأجواء ، فيبلغه غايته فى لحظات يسيرة .

وظفر ثالثهم بتفاحة شافية ، تبرىء من السم وتعيد الحياة الى من
أشرف على التلف .

ونظروا فى المنظار فاذا الأميرة على فراش الموت تحتضر ، فأسرعوا
الى البساط ، فاذا بهم عندها فى الحال ، وأدنوا التفاحة منها فشفت
على الفور . وحاولوا أن يعرفوا أيهم صاحب الفضل فى شفائها فلم يهتدوا
اليه .

فلولا المنظار ما عرفوا مرضها الخطير . ولولا البساط لهلكت قبل أن يصلوا إليها . ولولا التفاحة الشافية ما كان لوصولهم فائدة . فإذا نقصت واحدة من هدايا الاسطورة ضاع كل أمل فى شفاء الاميرة .

وان فى هذه القصة مثلا دقيقا يوضح ما يجب على من يتصدى للكتابة للاطفال أن يهدف اليه ، ويجعله نصب عينيه .

ان تحبيب الكتاب الى نفس الطفل ، اول طريق لتمكينه من القراءة ومتى ظفر بهذه الغاية ، ظفر بالمنظار السحري ، الذى يرى فيه صاحبه كل ما يريد أن يراه .

اما الاسلوب القصصى الساحر ، فهو بساط الريح الذى ينتقل بالقارئ الى أبعد الافاق الفكرية ، فى لحظات يسيرة ، ويطير به على أجنحة الخيال البديع ، محلة فى سماء الحقيقة ، دون أن يلحق به كلال ولا جهد .

اما التفاحة الشافية ، فتتمثل فيها ما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية رائعة ، تشفى سموم الجهالة ، وتبرىء من النزعات الباردة التى تمجى بصاحبها الى الهلاك وتقذف به .

ولنقف عند أول هذه الاهداف الجليلة لحظة قصيرة . فما تنسج هذه المجالة الخاطفة لغيرها .

لنقف عند الخطوة الاولى . وهى تحبيب القراءة الى الطفل ، وتمكين الفصحى من نفسه ، وحمايته مما يفره من البيان المشسوه المطرب ، وتجنبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذى كاد يفرقنا فى مسنهل نشأتنا الثقافية ، وما زال يفرم الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد ، فيقضى على مواهبهم الفنية أو يكاد فى زمن حداثتهم . ولنهىء لهم به بيانا عربيا خالصا ، يطعمهم على الفصحى منذ طفولتهم المبكرة . حتى اذا كبروا صارت لهم الفصحى ، كما كانت لغيرهم من أسلاف الرب فى عصور القوة الاولى ، سليقة وطبعا ، وأصبح البيان العربى متأصلا فى نفوسهم عادة وملكة . وتخلصوا من العجمة المتفشية بين شباب العصر وقتيته .

اما الطريقة الى هذا الحلم الجميل ، نحقيها ميسور غير مستحيل: اننا اذا راقبنا كلام الطفل ، وهو فى مستهل طفولته ، رأيناه يلجأ الى تكرار الجمل . اذا قص علينا خيرا ، كأنما يتثبت من معانيها فى ألفاظها المكررة .

فلماذا لا نكتب ، وهو فى هذه السن ، محاكين أسلوبه الطبيعى، فى تكرار الجمل والالفاظ ، لنثبت المعانى فى ذهنه تثبيتا ؟

ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة لنسهل عليه قراءتها ؟
ذلكم أجدر بنا وأليق ، فان لكل مقام مقالا .

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل - فى هذه المرحلة - ملول ، يتهيب الكتاب . فلننزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبب اليه الكتاب بكل وسيلة ولنبسّط له الأسلوب تبسيطا ، مكثرين من الصور الجذابة الشائقة ، التى تستدعى انتباهه ، لنشغره أن الكتاب تحفة تهدى اليه اهداء وليس واجبا يكلفه تكليفا . فان الطفل - اذا ساء ظنه بالكتاب - صعب اجتذابه اليه بعد نفوره منه .

وفذ وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الاطفال ، توفيقا عجيبا ، فى تبغيض القراءة الى نفوسهم . فأصبحوا يمتنون الكتاب ، ويهربون من قراءته ، لان المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته . ولم ينزلوا الى مستوى مدارك الاطفال .

ومن الانصاف أن نقرر بصراحة انهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أو منهج بعينه ، وأنهم فى تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية لتنظيم الكتاب وتألف أجزائه ، لأنهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب كيفما اتفق أن يتصيدوها ، فيخرج الكتاب خليطا مضطربا لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها ، ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

ان الطفل ميال بطبعه الى الحكايات والقصص ، وهو بفريزته مفتون برؤية الصور الجذابة . فلنختار له منها ما يناسب سنه ، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره .

ولنقصر جهدا فى استعمال الالفاظ الجديدة ، ولنؤلف له من الالفاظ القليلة التى يقرؤها فى بضعة أسطر عدة صفحات كاملة ، لندخل فى روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم ، وليست شاقة مضنية ، كما ألفها فى الكتب الأخرى . بل هى سهلة ميسورة ، وهى الى سهولتها ويسرها ممتعة شائقة ، تملأ نفسه بهجة وانشراحا .

وإذا شعر الطفل بهمة فى نفسه . اذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير . فهو لن يتم قراءة السطر الاول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثانى والثالث والرابع وهكذا . لان الالفاظ لا تكاد تتغير فى الجمل الا بمقدار يسير .

وليجعل المربي همه في قصصه ، قصة الرجل الذي كان يحمل
الثور صاعدا السلم ، وهابطا به دركه ، دون أن يبدو عليه شيء من آثار
التعب والجهد ، فلما سئل في هذا أجاب قائلا :

لقد تعودت حمل الثور منذ ولادته كل صباح . وما زلت أكبر ويكبر
مع الثور ويزداد نمونا كل يوم زيادة قليلة مضطردة ، حتى اكتمل
نمؤنا . ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوما عما كان في سابقه . ولم
أحس له ثقلا الي اليوم .

ثم انه على المربي أن يبدأ بتسليية الطفل ،متدرجا به كل يوم تدرجا
بطيئا ، لا يكاد يشعر أن له أثرا ، مستعينا على هذا بفرض بالصور
الملونة الجذابة ، والشكل الكامل ، والالفاظ السهلة . حتى اذا اطمأن
الى الاسلوب السهل ، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة ، انتقل به
الى المرحلة التالية ، فمزج له التسليية بالفائدة .

ثم عليه أن ينتقل به خطوة بعد خطوة ، حتى يرى في فنون المعرفة
وحدها متعة وتسليية لا يعدلها شيء من فنون المتع وضروب التسليية .

ثم ان على المربي في قصصه ، تحبيب الفصحى اليه ، وتعويمه
النطق بالصحيح من الالفاظ ، وتربيته على الأخذ بالصحيح من الآراء ،
فان الخطأ اللفظي ، كالخطأ المعنوي . فاذا انطبع أحدهما أو كلاهما في
ذهن الطفل صعب اقتلاعه في قابل أيامه . ولا معدى للمربي عن ترغيبه
- بكل ما يملك من الوسائل - في الاسلوب الرائع والمثل الصالح فلا
يسمح له بعبارة واحدة ، تقلل من شأن لغته ، أو تصغر من جلال القيم
الحقيقية .

ان تحبيب الكتاب ، وتخير الاسلوب الصالح ، وتثبيت الفضائل
في نفس الطفل هي الاهداف الثلاثة التي ترمى اليها تربية الاطفال
بالتقصص . ولا بد من اجتماعها ، لبلوغ الغاية المرجوة ، كما اجتمعت
هدايا الامراء الثلاثة لشفاء الاميرة .

مشاكل المجتمع :

وجهت مجلة الاثنين الى الاستاذ (كامل كيلاني) خطابا من شاب
يأثس ، ليجيب عن مشكلته .

وفيمما يلى نص الخطاب والاجابة عنه :
لا أعرف أبى .

هذه مشكلة شاب ، تكاد تصصف به الحيرة ، لانه لا يدري ابن من هو ؟ فأرسل يسألنا الهداية والارشاد .

وهذه هي رسالته . وهذا هو رد الاستاذ كامل كيلاني عليها :
ابن من أنا ؟

سؤال لم يخطر على بالي يوما اني سأوجهه الى نفسي ، ولكن هانذا أوجهه اليوم ، لا الى نفسي فحسب ، ولكن اليك .

واذا كنت أكتب اليك ، فأنا اذن أوجه سؤالي الى كل فرد في الشعب كذلك .

لقد نشأت وشبيت وأنا لا أعرف لى أبا وأما .

وفي نشأتي وشبابي ذقت من ألوان الحنان - فى أحضان والدين كريمين - ما لا يطعم وليد فى أكثر منه .

ولعله بفضل هذا الحنان وحده كان نجاحي فى دراستي حتى حصلت على (بكالوريوس) كلية الزراعة . وكان توفيقى فى حياتي العملية .

لكن القدر ساق الى من أطلمنى على السر الرهيب . فوقفت على الحقيقة ، واذا الحياة تصغر فى عيني ، لانى صغرت فى عيني نفسى !

انى مجهول الأصل يا سيدى ، لا يعرف أحد والدى ، وهذان الكريمان اللذان منحاني اسميهما ، وحنانهما ، انما منحاني كل ذلك احتسابا ، بعد أن تسلمانى من أيدى ليست بينها أيدى أمى وأبى ، لأنها أيدى موظفى الملجأ .

وبدأت - منذ عرفت هذه الحقيقة الفاجعة - أحس صراعا داخليا عنيفا ، وأشعر بالخجل ازاء كل إنسان .

وكيف لا ؟ ألسنت لقيط ؟

فبأى وجه اذن ألقى الشرفاء ، وأتحدث اليهم ؟

وهذان الكريمان اللذان غمرنى حنانهما وفضلهما - ما ذنبهما حتى يتحملانى بعد اليوم ويشقيا معى ؟

وظفنت على أفكارى موجة تساؤل عاتية . وأنا - فى كل حين -
أتساءل : ترى من أنا ؟ وكيف ولدت ؟ وأين أمى ؟

أتراها الآن ذكرى في ضمير الثرى ؟ ومن يدري ؟

ربما كانت - حتى اليوم - حية تقامى مرارة البؤس : خادمة في أحد البيوت ، أو متسولة تسأل الناس ، فيعطونها أو يحرمونها ، ويحتقرونها على الحالين . وقد أكون أنا من بينهم !

انى باتس معذب الضمير ياسيدى ، أرى الحياة ظلاما فى ظلام .
واكاد أفقد تعقل وإيمانى كلما شرد فكرى فى مشكلتى الخطيرة ...

بريك يا سيدى : هل لديك لئىل حالى علاج ؟

وهل من حقى أن أعيش ، وأن أرفع رأسى ، كسائر الناس ؟

لا تعلب نفسك !

رد الاستاذ (كامل كيلانى) :

أيها الشاب المعذب ، اننى أربأ بشاب فى مثل ثقافتك أن يعذب نفسه بهذه الاوهام ، فمن أين لك أن أمك لم تكن سيدة شريفة ، وأن فقر والدك أو فقده هو الذى انتهى بك الى الملجأ ؟

وما لك لا تشكر الله آله وهب لك هذين الكريمين ، فرباك وعلماك ،
ومنحك حبهما خالصا ؟

ولماذا لا تبادلهما الحب ، فتسعدهما ، كما أسعداك ؟

لقد طلبت منا علاجاً . فاذا كنت جادا فى طلبك فان خير علاج
لشك أن تسرع بالزواج . ففي حنان الزوجة ما يوضح عن الحنان الذى
فقدته ، وفي نبعات الزواج ما يشغلك عن التفكير فى اوهامك .

وحيث تصير أباً فلن تعود اليك هذه الهواجس التى تلح عليك ،
وتقض مضجحك ، اذ يتحول كل اهتمامك حينئذ الى أولادك ، ويشغلك
التفكير فى مستقبلهم عن كل شىء حتى نفسك !

ان ذلك القلق الذى تسميه ... خطأ (عذاب الضمير) ليس الا
أثرا للصدمة التى منيت بها ، ومميزول حتما . أما ضميرك فما الذى
يقلقه أو يعذبه ، وما جنيت شيئا تؤاخذ عليه ؟

وأن اردت أن تحسن الى أمك المجهولة التى تتروم أنها - الآن -
حياة تعاني بؤس الحياة - ففي وسعك أن تحسن اليها فى شخص كل
باتس ومحروم .

بقيت نظرة الناس اليك ، وأحب أن أؤكد أن الناس سيحكمون على شخصك ، وعملك . فلن يقدروك أو يحتقروك لأنك ابن فلان أو لست ابن فلان . على أن العاقل لا يهتم إلا بكلام العقلاء ، وهؤلاء أبعد ما يكونون عما تخافه وتخشاه !

اتخذ أيها العزيز من هذه الثروة ثروة : وحول سخطك قوة تدفعك الى الامام . وعليك أن يغنى دمك بنار الاندفاع في العمل . فهذا خير من أن يغنى بنار الغيظ والحقد على نفسك وأنت لم تجن ذنباً .

وثق أنك ستكون موضع احترام الجميع وتقديرهم : فقيما قال الشاعر :

ان الفتى من يقول هانذا ليس الفتى من يقول كان أبى
سدد الله خطاك . وألهمك الصواب .

أسئلة صحفية

لقد سألني كثير من الصحفيين : (أى بلد تفضل ؟) فكان جوابي دائما : (ان أجمل ما رأيته هو كل بلد رأيته) .

ولقد كان هذا السؤال - كلما ألقى على - يذكرني بفصة ذلك العربي المنصف . حين طلب اليه أحد الخلفاء أن يفاضل بين نوعين من الحلوى . فسأل الخليفة أن يحضرهما اليه ، ليكون حكمه اصدق وأخذ يتذوق هذا مرة ، وذاك مرة . ثم التفت الى الخليفة - أبحر الأمر - وقد تملكته الحيرة ، وقال :

(كلما أردت أن أحكم لأحدهما - يا امير المؤمنين - قام لى الآخر فأدلى بحجته !) .

وهكذا يشعر المنصف : كلما حاول أن يفاضل بين ربات الجمال ، أو بين فحول الكتاب ، أو بين أمهات المدن !

ففى دمشق ، وبيروت ، والقفس ، ويلغا ، جمال أخاذ - وذكريات عزيزة ، وأدياء فحول ، وشباب يلتهبون غيرة وحماسة وإخلاصا ، وفيها عقول كبيرة ، ونفوس عامرة بالايمان ، زاخرة بحب الوطن العربي ،الذى يجمع بين أبناء العروبة ، على تناثي بلادهم ، واختلاف نزعاتهم ، وشتى شعوبهم .

وفى تلك البلاد الحبيبة - من روائع الطبيعة - ما يفجر بهجة

وانشراحا . وقد لقيت من زعمائها وقادة الرأى فيها أفذاذا . وسمعت منهم أحاديث معجبة ، لا تكفى هذه الكلمات الموجزة لسرد واحد منها وتحليله واطهار مواطن قوته ، ومنأحي جلاله وروعته ...

ومن حسن الملامة والانسجام أنك ترى روعة المناظر فى هذه البلاد متسقة مع صفاء نفوس أهلها ، وجمال أخلاقهم ، وحسن عشرتهم .

وقال الكيلانى : ان شعورى نحو مؤلفاتى شعور عجيب حقا . فاننى لا أكاد أفرغ من اظهار كتاب ، حتى أشتغل بغيره ، وينصرف كل جهدى وتفكيرى الى المؤلف الجديد ، فلا أكاد أفكر فى المؤلفات القديمة .

وكثيرا ما أتحاماما وأهرب من قراءتها بعد طبعها ، وربما ساقط المصادفات الى ، كتابا منها ، ولم أجد أمامى غيره ، فافتح الكتاب ، مؤثرا القراءة فيه على البقاء وحدى بدون قراءة ، ولا أكاد أقرأ فيه حتى أنس به وأطرب لقراءته كأنى قارئ غريب ، وربما قرأت فصولا دون أن أشعر بممل . حتى اذا طويت الكتاب عاودنى شعورى القديم ، فما أود النظر اليه .

وقال الكيلانى : ان حرب اللغة العربية : بين الفصحى والعامية ، تلك التى كان يكلف بها الناس بالأمس ، انما هى جزء من خطة ضخمة يديرها الاستعمار ، ويدعو لها .

فقد سمم المستعمر جميع الآبار الثقافية ، واستطاعت الثورة أن تحطم خطته ، خطة بعد أخرى ، الى غير رجعة .

وكانت الدعوة الى اللغة العامية ، من بين هذه الخطط ، التى حاربها الكيلانى ، منذ عام ١٩٣٠ م ، عندما عقدت مناظرة ضخمة ، بين (ابراهيم رمزى) و (لطفى جمعة) . وحضرها طائفة من كبار الادباء ، أمثال شوقي ، والهلباوى ، وصادق عنبر ، ومحمد الهراوى .

وقد انتصر يومها الحق بعد كلمة صريحة ، علق بها على كلمتى المتناظرين ، وفند فيها العبارات التى استغفلت للدعوة الى العامية .

الفصل الخامس

الكثير من الطائف

انها ظاهرة غريبة ، لوحظت على الأستاذ الكيلانى ، فى أخريات حياته ، على الرغم من تحمله الآلام والسقام ! فكنا نجده يخرج مع أحد رفاقه وسائق سيارته فى الصباح ، لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين ، ويحسن فى طريقه على البائسين والمساكين ، وكأنه زهد الدنيا . وإذا ما تذكر حقوق أخوانه وزملائه نحوه فى تلك اللحظات خرج فى المساء الى صديقه (فلان) فإذا وجده جلس معه ، أو طلب اصطحابه معه ، فيأخذه معه فى عربته ، لكي يذهب معه الى صديق آخر ، فإذا لم يجده ، ترك له رسالة يسأله عنه ، وأنه يريد مقابله . وأنه ان لم يتمكن الصديق من رؤيته ، فانه يطلب اليه الدعاء . وكان عزمه وهدفه الاطمئنان على جميع خالصائه وأصدقائه ، وكأنه يستودع فى هذه المرة كل من يراه ، ومن لم يره ، ويطلب اليهم جميعا السماح والدعاء !

الكلمة الأخيرة :

أحس الكيلانى قرب نهايته . وذلك لما كان يعانيه من آلام المرض . فكان رثاؤه لنفسه ، قبل أن يرثيه غيره .

حتى قال لأحد الصحفيين فى ذلك الحين :

(اعرف أننى ساموت . وأن هذه هى النهاية . وإن هذه هى الساعات الأخيرة فى عمري . ولقد عشت حياتى أقرا وجوه الناس ، اعرف ما يقولون وما يخفون . وقد قرأت فى وجه كل من حولى أننى أموت) . ثم استطرد . فقال :

(اننى أريد أن أقرر حقيقة كبيرة . هى أننى لم آخذ مكانى قط ، ذلك بأن المقد والحسد والفقره آكلت كل المحاولات التى بذلت لأجل أن اجلس على المقعد الصحيح ، وأقف فى المكان المناسب . لكننى غفرت لكل الذين أساءوا الى ، ووقفوا جحر عثره فى طريقى . غفرت لهم وعفوت عنهم . ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضا) .

ثم قال :

لست أدري : هل كنت أحس أننى ساموت بهذه السرعة وما زالت

كلمات المرحوم محمد على علوية تطن في أذني ، وكانت دائما تدفعني لكي
أعمل وأكتب بلا راحة ولا توقف ؟ قال علوية (باشا) يوما : ان (كامل
كيلاني) هو صاحب الثورة (البيداوجية) الرشيدة في عالم الأطفال .
هذه الكلمات القليلة كانت تكمن وراءها كل جهودى طوال السنوات
الماضية) .

ثم أضاف الى ما قال ، قوله :

(وهانذا أموت ، واكتبوا عني أنى لم أنل كلمة تقدير واحدة ، لم
أنل جائزة .. مكافأة لي طوال حياتي) .

ثم قال :

(لا أذكر في حياتي أننى قصرت في واجب نحو صديق . وكان كل
الناس أصدقاؤى ، وتمرد على أعدائى . فلم أستطع أن أروضهم) .

ثم تابع قوله ، فقال :

لقد أحسست الدولة بجهودي أخيرا ، ويوم قررت كتنى على المدارس ،
شعرت أن الصبح أوشك أن يطلع ، وذهبت لأشكر السيد (كمال الدين
حسين) . فقال : لا شكر على واجب .

فقلت له : ان الشكر يجب أن يوجه للذين يقومون بالواجب .
وهذا أول واجب تؤديه الدولة نحوى .

وسكت (كامل كيلاني) قليلا ، وحاول أن يحرك يده ليمسح عن
جبينه سمة الموت فلم يستطع .

ثم أذاع السر الذى كان يكنه في نفسه لأول مرة ، واستجمع البقية
الباقية من قواه ، وقال :

ان الدافع الوحيد لترجمة النص الحرفي لقصة (أبو خربوش) الى
الانجليزية ، التى نشرتها في الكتاب - هو أنى كنت أستمع الى رائد
الثورة المصرية ، وبطلها ، فى الاذاعة ، وهو يخطب بالانجليزية . فقلت :
من يدري ؟ لعل من بين الأطفال من سيواجه مثل هذا الموقف يوما ما
فكيف لا يعرف لغة أخرى ؟ وترجمت الكتاب ، وأصبح يستطيع أن يقرأ
بالعربية والانجليزية القصة نفسها بلغة بسيطة واضحة .

ثم أدار رأسه على فراش الموت • وقال :

لقد عشيت حياتي أتمثل بيتين من الشعر لم أتخل عنهما • وكلما
تعرضت لحنة أو مررت بامتحان لم أكن أفعل شيئا إلا أن أرددهما •
واليكم البيتين :

أبدعت فاحتمل المكاره صابرا ان الشقاء الحق أحسن مبدع
وعليك بالفزع المؤرق ، انه زاد الابى ، ولذة المترفع
وهذان البيتان من تأليفى •

وبعد ساعات قليلة من الادلاء بحديثه الصحفي الأخير ، الذى سجله
بنفسه على صفحات التاريخ غلبه الألم ، وأحاط به السقم ، وملت به سكرة
الموت ، فأدار رأسه الى القبلة ، ناطقا بالشهادتين ، ثم فارقت روحه جسده ،
صاعدة الى بارئها ، ذى الجلال والاکرام •

وفاته :

عبر (كامل كيلانى) طريق الحياة ، منتقلا الى جوار ربه مساء يوم
الجمعة ، لثمان خلون من ربيع الثانى سنة ١٣٧٩ ، الموافق التاسع من
أكتوبر سنة ١٩٥٩ م . ودفن صباح يوم السبت ١٠/١٠/١٩٥٩ ، بمدافن
الأسرة ، عن ثلاثة وستين عاما ، حافلة بأجل الأعمال وعظيم الاثر •

فارق (كامل كيلانى) الحياة ، بعد جهاد طويل ، ومعارك كبيرة ،
بينه وبين المرض المضنى ، وكانت الحرب بينهما سجالا ، وفى النهاية
انتصر المرض ، وألم به الموت •

فسبحان من له البقاء ، واليه المرجع والمصير •

ترك (الكيلانى) الدنيا ، بعد حياة عريضة : حفلت بالعمل الأدبى
فى ميادينها المختلفة : النقد والشعر والقصة ، وقد صدرت الصحف فى
صبيحة يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ ، تحمل نعيه ، فى عبارات تصور
مدى الحسارة التى لحقت (أسرة القلم) فى عالم البيان ، بوفاة (رائد أدب
الاطفال) و (نقيب الأدباء) و (باني الأجيال) •

علم من أعلام الادب العربى المعاصر ، استطاع أن يشق طريقه
بجهده ، وأن يكتب صفحة مشرقة من صفحات العمل الإيجابى البعيد المدى فى
حياة الفكر العربى • فقد أسس مدرسة لفن (قصص الاطفال) • وكانت

طفولته منذ بدايته مثلا يمكن أن يتخذ منهاجاً للتربية المنزلية في تنشئة
الطفل ، وتكوين الرجل .

فمن وفاء (كامل كيلاني) لوالده الشيخ (كيلاني ابراهيم) أنه
لعدى اليه أول كتاب له قائلا :

(رأيك ، منذ حدثني ، تقرا الكتاب ، وتتخذه صاحبا ورفيقا ،
فحببني ذلك الى الكتاب ، وما زلت أحبه الى اليوم .

ولقد طالما سلكت في تأديبي طريق الوعظ والقصص ، فكنت أول
من حجب لي هذه الفكرة . وكان لك الفضل الأول في أخذي بهذا الأسلوب .
وتمكنه من نفسي . وكنت نعم القدوة لابتك في تربيته ولد (مصطفى)
وأخوته .

فمن هنا الأدب الحكيم أخذ - إذن - وسيلة تعليم الأطفال - عن طريق
القصة والقدوة ، وعنه أخذ حب الكتاب ، والشفق بالمطالعة والثقافة .
وكان من طبيعته أن يبذل غاية جهته في سبيل التجويد والكمال لانتاجه
الأدبي .

وكان (كامل كيلاني) وفيما مخلصا لوالديه . فلم يلق عقابا منهما .
حتى انه قال :

(عشت طفولتي وصباى أنتظر (علة) من أبى) .

ثم ان تنشئة الرائد بهذه الصورة الواضحة ، ورعايته للأطفال فيما
بعد ، كانتا ومازلتا مما يحبب الأطفال في (كامل كيلاني) .

وقد كانت وفاته خسارة كبيرة على المجتمع العربى .

مات (كامل كيلاني) وترك للأطفال أدبا حقا ، ينير لهم طريق
المعرفة ، ويوضح لهم معالم الطريق .

ثم ان الشباب الذين كانوا أطفالا ، أصبحوا ييكونه أيضا : ويتذكرون
فضله عليهم بالأمس واليوم والغد .

وكان (كامل كيلاني) من أبرز كتابنا الذين شاركوا في النشاط
الأدبي مشاركة بعيدة المدى ، أهله لان يكون (نقيبا للأدباء) على رأس
عدد كبير من الشباب المثقفين الواعين ، الذين أصبحوا - من بعد - كتابا
لامعين . فقد اشترك في تأسيس جماعة (أبولو) مع الدكتور احمد زكى
أبى شادى . وأسهم في تحرير عدد من الصحف الأدبية . ثم رأى أن

يقصر جهده على تنشئة الطفل - حتى أصبح رائدا للادب القصصى - وبانيا
للأجيال ..

تقدير الدولة :

ان (كامل كيلاني) مناضل قهر الصعوبات - ومهد الطريق ، حتى
أكد مهمته كرائد لادب الأطفال - بالرغم من العوائق والصعاب
الطبيعية والمصطنعة .

فلقد عاش في حاجة الى التقدير .

الى تقدير الدولة ، وتقدير الأدياء - وفي حاجة الى الأمان من مكاييد
القاعدين المتخاذلين . وكان طوال حياته يقوم بعملية تعويض عن هذا
التقدير والتشجيع . فقد اعتاد أن يذيل كتبه بعبارات التقدير والثناء
المستفيض ، تلك التي كان يمنحه إياها - الأوفياء من الوطنيين ومن النابهين
والعظماء في الدول الشرقية الشقيقة . ثم أخذ منذ عهد الثورة يعرف
الفضل لرجال الثورة ، ويسهم في تحقيق أهداف الثورة .

أما الدولة ، في عهد الثورة ، فقد سارعت عقب وفاته ، لتمنح اسمه
شبيها من التخليد . فأطلقت اسمه على مدرسة ابتدائية بباب الحلق ، بجوار
دار الكتب ، ورصدت جائزة باسمه لادب الأطفال ، تحت إشراف المجلس
الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

وأطلقت المحافظة اسمه على أحد الشوارع بحي شبرا -

وهذا عمل جميل ، وتقدير عظيم .

ولى المزيد من الرجاء ، والأمل الوطيد ، في قرب من العناية والرعاية
من رجال الثورة الانسانية ، فيما يأتي :

١ - جعل كرسي للادب العربي وثمن القصة في الجامعات باسمه .

٢ - الاحتفال به في الإذاعة والتلفزيون ، في مختلف المناسبات
الداعية الى ذلك .

٣ - اخراج سلسلة من مسرحيات الأطفال ، مستوحاة من قصصه
الشائقة .

٤ - أن يقام له مهرجان أدبي سنوي ، كالأدباء الذين يحتفل بهم رسمياً ، أمثال (الكواكبي) وغيره .

٥ - إقامة تمثال (للقبيب الراحل) في أحد الميادين العامة ، اعترافاً بفضلِهِ ، وتخليداً لذكراه (كهانس أندرسون) الدانمركي ، ذلك الذي اشتهر في بلاد العالم ، وله في الدانمرك تماثيل تملأ الميادين . فلا أقل من جعل تمثال واحد ، لأديبنا الراحل ، الذي وهب حياته لخدمة الأطفال والناشئة .

والله تسأل المزيد من التوفيق والسداد لخير النشء وإعلاء الوطن .

أهم المراجع

- ١ - مجلة المقتطف .
- ٢ - محفوظات الأطفال .
- ٣ - مجلة الأخاء .
- ٤ - كتاب فن الكتابة .
- ٥ - نظرات في تاريخ الإسلام .
- ٦ - صور جديدة من الأدب العربي .
- ٧ - رسالة الغفران .
- ٨ - الشعراء المعاصرون .
- ٩ - مصارع الخلفاء .
- ١٠ - ديون ابن الرومي .
- ١١ - تاريخ الأدب الأندلسي .
- ١٢ - مجلة المصور .
- ١٣ - مجلة الحديث (بحلب) .
- ١٤ - المجلة الجديدة (القاهرة) .
- ١٥ - مجلة لغة العرب (بغداد) .
- ١٦ - مجلة كوكب الشرق .
- ١٧ - الرسالة .
- ١٨ - أضواء على حياة الادباء .
- ١٩ - مجلة الرسالة الجديدة .
- ٢٠ - الزمان .

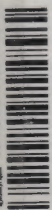
- ٢١ - مجلة الدنيا (بيروت)
- ٢٢ - مجلة صوت الشرق
- ٢٣ - مجلة الاثنين
- ٢٤ - مجلة الاذاعة
- ٢٥ - مجلة التربية الحديثة
- ٢٦ - منبر الشرق
- ٢٧ - رحلات الى الاقطار الشقيقة
- ٢٨ - مختارات كامل كيلاني
- ٢٩ - محفوظات كامل كيلاني

فهرس

الموضوع	صفحة
تقديم :	٥
الفصل الأول :	١١
نشأته وحياته ، اساتذته ، مواهبه الأدبية ، اتجاهه القصصى ، منهاجه الأدبى .	
الفصل الثانى :	٢٩
رحلاته الى العالم العربى ، القومية العربية وعواملها ، القومية العربية ووحدة اللغة ، نهضة الشرق .	
الفصل الثالث :	٢٥
أعماله : تحقيق المفاهيم الأدبية ، النقد الأدبى ، تأديب التاريخ ، موازنة أدبية ، بحوث لغوية ، الفكاهة الجحوية فى الأدب الشعبى ، فن الكتابة ، حى بن يقطان ، شعر الكيلانى العام ، شعره القصصى ، من السيرة النبوية ، من المحفوظات الكيلانية ، وطنيته ، منزلته بين معاصريه .	
الفصل الرابع :	١٠١
الرائد يتحدث من : التربية وضرب الأمثال ، القدوة الحسنة ، روائع من أحداث جفا ، طريقة احتفاظ « الكيلانى » بالكتب ، كيف نحجب القراءة الى الأطفال ؟ مشاكل المجتمع ، أسئلة صحفية .	
الفصل الخامس :	١١٥
الكيلانى الطائف ، وفاته ، تقدير الدولة .	
اهم المراجع :	١٢٣

الدار القومية للطباعة والنشر

35
ad
Bibliotheca Alexandrina



0681865

العدد ٨٤

الشمس ٢٠